
علي المزعل
ندى الحصاد
قصص
اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق



هذا الكتـــاب

قصص تمتح من معين القيم القومية والوطنية وينجح المؤلف ، من خلالها في صوغ ملموسيـــة واقعية ، تستنطق الوجدان اشرف المعاني .مع حرص شديد على الوعي بالتاريخ ، ومن خلال الاختزال ، وتكثيف المشهد القصصي ،وضمن لغة تتسم بالبساطة والسهولة والسلاسة .

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق ۱۹۹۰

[illegible] قطر
٨٥ ل.س في اقطار الوطن العربي



ندى الحصاد

علي المزعل

ندى الحصاد

مجموعة قصصيّة

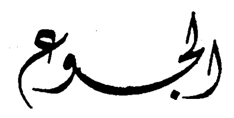
منشورات اتحاد الكتاب العرب
١٩٩٠

• تصميم الغلاف: أنور الرحبي

الإهداء

إلى ذكرى والدي


الجوع



الجوع

محاريث الفلاحين ، استراحت على أطراف السهول المترامية ، التي ما زالت تقبض على بقايا جذور تالفة خلفتها المواسم الماضية .. وبدت أضلاع الأبقار تفرّ من جلودها، بينما تاست عيونها في محاجرها بحثاً عن شيء مفقود .

وصارت جلود الأغنام عاجزة عن الإمساك بأصوافها التي تناثرت فوق ظهورها وبرزت أنيابها بيضاء ناصعة لا تقبض على شيء ، حتى قيل إن الشاة لا تطعم أختها .

وعكست وجوه الناس امعاءهم ، فاعتكرت بالصفرة والحيرة ، وبدا الأطفال في شوارع القرية قد أمسكت أجسادهم بقايا ثياب ،وتباطأت حركاتهم على نحو ينسجم تماماً مع حركة الحيوانات السارحة في ظلال البيوت التي

تشقق طينهـا ، وانكسرت أهدابهم أمام هبات الريـح المحملة بالغبار الأصفر .

وتطامنت الرقاب المنطلقة نحو السماء ، بعـد أن أضناها الانتظار ، ولفها اليأس وصار المـاء حلماً يلف الجميع.

وقد زار الأمر سوءً انتشار عسكر الترك ، وتسلطهم على رقاب الفلاحين ، حيث الهبت سياطهم ظهورنـا ، وكلّت عزائمنا في مواجهـة أعمال السخرة المتلاحقة ، والسوق الاجباري لساحات القتال خارج الحدود .

واضحتّ بيوت المؤونة فارغة تماماً من محتوياتها ، فقد التهمت خيولهم بقايا الحبوب المخزونـة لمواجهـة الجفاف .. وكثيراً ماكان الموت مرافقاً لنـا حتى ازدحمت المقابر بسكانها ، أما من نجـا واختار طريق الرفض ، فقد غادر القرية الى معاقل أخرى لمقاومة الاحتلال .

ولم يتوقف الظلم عند هذا الحد ، فقـد صـار « التشليح » سنة ثابتة يمارسها عسكر الترك وقطاع الطرق أينما حلوا ، وكثيراً ما اضطر بعضهم لالتهـام قطع النقود في مواجهة حملات التفتيش المتواصلة ...حتى إذا مضت الحملـة بحثوا عنها في بقاياهم .

وغدا البحث عن حبات الشعير والقمح في روث الحيوانات أمراً مألوفاً اعتاده الجميـع وصارت لحوم الخيل طعاماً مشروعاً اقتاته الكثيرون .

وفي يوم كان الوقت ظهراً .. والتهمت شمس الهجير بيوت القرية وحقولها تحاملت على نفسي ، وخرجت لأرقب القرية من بعيد ، بعـد أن غادرت الكهف الذي سترني زمناً ، منذ أن لاحقني عسكر الترك .

خرجت من بطن الجبل لأرتقي مرتفعاً صخرياً يطـل على أطراف القرية .

ظللت أجفـاني براحتي في محاولـة لمقاومة وهج الشمس اللاهبة ، وامتدت أهدابي نحو الأفق الأصفر.. بيوت القرية ارتسمت أمامي كتلاً طينية ميتة وسط أمواج الغبار الملتف في أعمدة متداخلة .

وعلى أطراف الحقول انتشـرت أشبـاح متباعدة لحيوانات سارحة تبحث عنوة عن بقايا الجذور المطمورة بترابها .. وبين هذا وذاك كانت حركـة أمعائي ناقوساً دائماً ينقر مسمعي . تراجعت حركة أهدابي لتجول المكان الذي أقف فيه .

لا شيء يبعث على الحياة ... أشجار جرداء تنضح بالموت ، وصخور تعكس التهاب الشمس ، وطرقات ضيقة تلتف في طيات السفوح المقابلة.

حاولت عنوة البحث عن بعض الزواحف التي اعتدنا مشاهدتها في وادي القرية فلم أجد إلا جحوراً خربة احتمت بالصخور على نحو يوحي بانعدام الحياة منذ زمن مددت يدي لأجوس أمعائي من فوق الثياب ... حاولت أن أشد الحزام الى آخر ثقب ممكن بعد أن مررت بها جميعاً فلم أستطع .

عاودت الكرة ، حتى أفلحت في إحداث ثقب جديد في منطقة من الحزام كانت يوماً تمسك ظهري.

أمسكت سكيني ، التهمته بعيني ، حتى بهرني التماعه أعدته الى غمده ... ثم دفعت قدمي في طريق ضيق بين الصخور لأعود الى الكهف بحثاً عن شيء لم أكن متيقناً من وجوده .

لكن أملاً خامرني بأن الرفاق الذين غادروني منذ أيام تركوا شيئاً من خبز الشعير المقدد ، تطامنت قليلاً على مدخل الكهف ، وفي وسطه استدرت حول نفسي

مرات متلاحقة فلم أعثر على شيء ، ولم ألحظ في أرجاء المكان إلا بقايا عظام منخورة تؤكد وجود الحيـاة في زمن ما ، وأعقاب لفافات مسحوقة حملت أطرافهـا خطوطاً صفراء لأفواه جائعــة • انطويت على نفسي ، ولم أعد أسمع إلا أنفاسي المتعبة تحاول عنوة تأكيـد الوجود في بحر السكون الذي يلف المنطقة •

••• حاولت النوم ، لكن أمعائي المتعاركـة ترفض السكون •

وما أن بدأت ظلال السفوح تقضم أطراف النور الممتد في قلب الوادي ، وتتراخى خيوط الشمس المتجهـة نحو الغروب ، حتى حطم السكون وقع أقدام متباطئة تتجـه نحو الكهف •

تناهضت قليلاً ،أمسكت السكين ، وتدافعت نحو باب الكهف ، وإذ به رجل مسن اختلط في وجهه بياض الشيب مع صفرة الملامح ، وبدت وجناته كتل عظم بارزة، وقف الشيب على أطرافها ممتداً نحو الحاجبين •

••• أما عيناه فقد التمعتا كعيني ثور متعب، تحاول عنوة الامساك بذيل بريقها •

عند ذاك حاولت التجشؤ انذاراً له بوجودي ، لكن تجشؤي ظل حبيس أضلاعي ، أعدت المحاولة مرة أخرى، توقف حذراً ثم مر بيده فوق فمه واسبلهـا سريعاً ،ظننت أن شيئاً ما قـد ابتلعه ، حاول أن يداري دهشته بابتسامة ذابلة .

قف .. قلتها ولست واثقاً مـن خروجها من بيـن شفتي .. أرفع يديك .. تقدمت نحوه ، عرفت أنه ليس أحسن حالاً مني ، فقد كان واضحاً أنـه يغالب السقوط هكذا بدا لي .

هل تملك طعاماً ؟

لا ... وأنت هل لديك شيء من هذا ؟

إذا :

ماذا وضعت في فمك ؟

... لاشيء ..

خامرني شعور أن شفتيه لم تتحركا منذ زمن ،ومع ذلك فقد ظل هاجسي انه ابتلع شيئاً ما .

اقتربتُ منه أكثر ، لفت أنفي رائحـة جسده ،

التي تشبه الى حد بعيد رائحة العظام المنخورة في قاب الكهف .

عاودت السؤال ..

.. ماذا وضعت في فمك ؟

لم يجب ، بل حاول جاهداً فتح أهدابه المتعبة .

إذاً ، لِنرَ ... ثم بدأت أفتش عن شيء ما تحت ثيابه .

... فمرت أناملي فوق نتوءات عظمية هي ذاتها نتوءات جسدي .

وبينما أنا كذلك ،أمسك عنقي تحت أبطه ، حيث بدا أنه استجمع بقايا قوته للدفاع عن نفسه ، ورغم رخاوة عضديه شعرت أني على حافة الاختناق .. امتزجت همهماتنا .

واستدارت أقدامنا في أرض المكان .. حاولت الافلات دون جدوى ، الأمر الذي أكد لّي أنه أفضل حالاً مني ، على عكس ما تصورت .

حاولت مرة أخرى ، فناء بجسده فوقي ، حتى لم يعد أحدنا قادراً على الفكاك من الآخر بل حتى لم أستطع سل جسدي من تحت هذا الهيكل العظمي.

عند ذاك ، تحركت أناملي ببطء لتعمل السكين في خاصرته .

ندّت عنه صرخة مخنوقة ، ثم بدأت أطرافه بالاسترخاء ...

فازداد ثقلاً فوق جسدي الملتحم بالأرض ، وبدأت خيوط الدم تصل بين جسدينا ،ثم تأخذ طريقها نحو الأرض العطشى ، لتكوّن في النهاية بقعة صغيرة حمراء، ظلت ثابتة رغم نقاط الدم المتلاحقة .

استنفرت أعصابي الباقية ، وببطء شديد انسللت جانباً وارتميت .

ضاعت عيناي في صحن السماء الباهتة ، وتعامدت خطوط الرؤيا على نحو متشابك يوحي بأشباح سوداء متداخلة .

تحاملت على نفسي ،وبصعوبة بالغة تتابعت أجزاء جسدي بالنهوض ..

اجلت النظر في أرجاء المكان ، لا شيء جديد ... أشجار عارية حتى من لحائها ، وصخور باهتة تلونت بالغبار ، وفي السماء بدت بعض العقبان تحوم بحثاً عن طعامها .

ثم ارتكزت عيناي فوق جبينه المتغضن ،...راعني المنظر كثيراً وشعرت بضيق شديد ، كأنما اطبقت الصخور على صدري .

انسللت داخلاً الى الكهف واستلقيت ....،

سوط الجوع ما ازل يلهب أمعائي وصلصلتها المتلاحقة المتلاحقة يوحي باعتصار نفسها .

ألحت عليّ الفكرة ذاتها ، مـاذا ابتلع هذا الرجل؟

لا بد أن شيئاً ما يُختَزن في أمعائه الآن ... ولكن ما جدوى ذلك ؟

إلحاح أمعاني المتواصل جعلني أتناهض من جديد. خرجت .. ابتلعت جسده بعيني المتعبتين ، وبين الحزن والجوع توزعت أشلاء نفسي.

تماسكت قليلاً ، وعنّوة قاومت سيل الحزن الشديد الذي عصف بيّ ....، نداء أمعائي هو الأقوى .

تطامنت نحوه ، أخرجت السكين من قرابة ، وبلحظة نادرة رحت أمزق بقايا الثياب الرثة التي تستر جسده

حتى بان بطنه اخدوداً سحيقاً بين الأضلاع .

ومع ذلك ظلّت الفكر ذاتها تلاحقني ..

ماذا اختزن في أمعائه ؟

وبمهارة الجراح أعملت سكيني.

تصاعد البخار من أمعائه الملتوية ، التي بدت وردية تكسوها حمرة فاترة .. وفي زاوية ما التصقت حبة شعير منتفخة .. أمسكتها .. وضعتها في فمي.

.. وبكيت .



الدشـــمه

الدهشة

الأفق الغربي يتشح ثوباً برتقالياً ، لونته خطوط حمراء ، نسجتها أشعة الشمس المنسحبة نحو الغروب ، وقمم التلال في الجولان المحتل تقاوم خيوط الليل التي بدأت بالتشكل ، فتبدو أشباحاً عملاقة على صدر الأفق ، وعلى امتداد الجبهة تلتمع أضواء خافتة حمراء تتحرك في الاتجاهات كلها . ومن المواقع المجاورة تتواصل أصوات الجنود ممزوجة بهدير متواصل لآليات مختلفة ، وذرات التراب تنهال متتابعة من أطراف الخنادق بفعل الاهتزازات المخنوقة في باطن الأرض ، حتى يخيل إليك أن الأرض أوشكت تلفظ أحشاءها لتلد كتلاً معدنية متراصة تعزف مع صخور الجولان ألحاناً اعتادها المقاتلون في مشاريعهم

التدريبية السابقة • ومع ذلك ارتعدت له أوصالنا على نحو لم نألفه من قبل •

قال الرقيب عمر : أكاد أجزم أيها الشباب أن في الأمر شيئاً جديداً فهاقد مضى على ارتدائنا لباس الميدان أسابيع عدة • فمتى كان الأمر كذلك ؟

ورغم مشاركتي الضمنية له في هذا الرأي قلت : أعتقد أن مشروعاً تدريبياً جديداً سيبدأ قريباً •

استدارت عيون الجنود في محاجرها ، وتقاطعت نظراتهم على نحو يوحي بتصور موحد للساعات القادمة، وقد عزز ذلك الحركة الدائبة لقادة الفصائل والسرايا ، والاجتماعات المتواصلة في مقر قيادة الوحدة ، والتفقد المستمر لجاهزية السلاح بمختلف أنواعه ، والأوامر المتلاحقة بتواجد الجنود داخل خنادقهم واستحكاماتهم الميدانية •

نهض المساعد أحمد ••• سرحت عيناه في فضاء الليل ، ثم استدار متوجساً : أقسم ياشباب أني أشتم رائحة البارود •

علق العريف جاسم مداعباً : اجلس يا رجل ، فأنا لم أشتم حتى الآن إلا رائحة الصخر ورائحة حذائي الذي التصق بقدمي •

أنت دائماً هكذا •• لا تشتم أبعد من حذائك •

قل ماشاء لك •• وماذا في الأمر •• هل سيكون أكثر من الحرب يا رجل ؟؟

الحرب •• وهل تعرف معنى ذلك • نعم أعرفه تماماً وسترى حين تقع الواقعة •

خيّم الصمت برهة قطّعتها قرقعات متلاحقة لأسلحة مختلفة ، ومعزوفات خاصة لأحذية الجنود التي تعارك حصى الخنادق المتعرجة •

بينما تلاحظ التماعات خافتة لخوذ الجنود التي بللها ندى الليل ، وارتجافات متفرقة « لسجائر » مخنوقة حاصرتها أصابع الجنود •

هذه الليلة تبتلع الآذان كل شيء حتى دبيب الحشرات السارحة حول خنادقنا ، وقد خيّل لي أحياناً أني أسمع بكاء طفلي الرضيع ينبعث من أعماق الليل •

المجند صبحي بدأ بالتململ بعد أن غالبه النوم كما يبدو •• متى ينبلج الفجر ؟ عسى أن يأتي الفرج •

قلت له : ضع الغطاء جيداً على كتفيك ، فقد أصبح

البرد قارساً الآن ، ثم امتدت أناملي لأزرار الحذاء في محاولة عابرة للتخفيف من قسوته •• وقبل أن أكمل قفز الى خندقنا النقيب كمال الذي غادرنا منذ ساعات الى المقر التعبوي لقيادة الوحدة •

أهلاً سيدي •• عسى في الأمر خيراً •• خير انشاء الله يا ملازم صلاح •• ساعات قليلة وتعرفون كل شيء، المهم أن يكون الجميع على أتم استعداد كما عهدناهم دائماً •

لا بأس سيدي ، سأطوف على الجميع الآن •

وما أن بدأت أعمدة الفجر بالانبلاج حتى كان الجميع في حالة تأهب تام •• عند ذلك بدأ النقيب كمال بتوزيع المهام المرسومة لتشكيلنا حيث حدد عناصر المقدمة والميمنة والميسرة ومجموعات الحماية ، موضحاً بشكل دقيق كيفية التعامل مع التشكيلات المجاورة والأهمية البالغة لمهمتنا التي يتوقف عليها سير المعركة في القطاع المحدد لهجومنا بعد هذا صار الأمر مؤكداً تماماً وخرج نهائياً من دائرة الاحتمالات •• ساعة الصفر هي ما ننتظره الآن •

عيوننا تعانق صخور الجولان وتجوس الأرض بما فيها من آكام وأخاديد •• أطياف الأهل والأحبة تمر أمامنا

على قمم التلال التي بدأت تعانق خيوط الصباح ،وملامح الجنود اكتسبت لوناً خاصاً يفيض حباً ودماً • ومع نهوض الشمس تسرب الدفء الى ظهورنا ، وعكست بنادقنا التماعات متواصلة لأشعتها الآخذة بالتوهج ، بينما بدأت سحب الغبار تركب موجات الريح لتكسو الفضاء لوناً باهتاً مثقلاً بالاحتمالات ومع تقدم النهار نحو الظهيرة بدأت مواقعنا تشهد موجاً متحركاً من الجنود والآليات، وبدا كأن السماء تستجيب لنداء الأرض بهدير متواصل ينبعث من أطراف الغيم السارح في آفاق الفضاء ،•• ثم ما لبث كل ذلك أن استحال ستاراً نارياً يلتهم الخطوط المعادية على امتداد الجبهة حين صدحت حناجر القادة ، بالايعاز المنتظر •• نار •• وتكرر هذا النداء عبر شارات اللاسلكي وأجهزة الاتصال الأخرى •

سحب الدخان ارتسمت جبالا سوداء ، وهي تحاول عنوة التخلص من ألسنة اللهب العالقة بأطرافها ، وتحت ظلال الدخان وعلى وهج الأفق المشتعل بدأنا بالتقدم نشق طريقنا عبر الصخور نحو تل القحطانية المطل على المحور الجنوبي لمدينة القنيطرة •

قال النقيب كمال : التقدم بأي ثمن ، مهمتنا حماية الجناح الجنوبي لقواتنا التي ستدخل المدينة •

توحدت أجسادنا بالصخور ، والتهمت عيوننا تل القحطانية الذي بدا ملتهباً بفعل الغارات المتلاحقة لطائراتنا والقصف المتصل لمدافعنا •• ورغم ذلك استمرت حامية التل المعادية بالمقاومة •

سيل متصل من القذائف المعادية يحاول عبثاً وقف تقدمنا •

صرخات الجنود تبعث في النفس رغبة جامحة في التحدي واصراراً أكيداً على ولوج الحياة رغم شبح الموت الذي لاحقنا زمناً طويلاً •

ومع ساعات المساء كنا نخوض آخر المحاولات الممكنة للوصول الى الهدف حيث بدا واضحاً أن الدشمة المعادية تسيطر تماماً على كل المعابر المؤدية الى التل •• عند ذاك تقدم رماة « الآر ــ ب ــ ج » يتلوهم حملة الرشاشات والبنادق ، والتحمنا مع العدو في عملية اقتحام مباشر •

أصوات الرجال يبتلعها دوي القذائف ووجوهم يلفحها الدخان ، وحول أهدابهم يلتف غبار البارود •• صرخة مدوية بدأت بالتلاشي مع سقوط المساعد أحمد وهو يمسك بصدره ويستدير بوجهه نحو آخر خيوط الشمس

بينما استمرت دبابة معادية تطلق نيرانها في الاتجـالات كلها ٠

قال النقيب كمال : رقيب عمر إليّ بالقنبلة ، لقد نفذت القنابل سيدي ٠٠ إذاً هاتِ البندقية ٠

ثم انطلق سهماً يحيط به الرصاص من كل جانب ومن خلفه تتابع الرفاق صعوداً الى قمة التل ٠٠وحين وصلنا حملنا جثـة النقيب كمال بينمـا اتجهت أبصارنا نحو القنيطرة ٠



دينار وثموت بثانية

دينار وتموت بثانية

كاد المجلس ينفض ، وهذا الرجل الجالس في صدر الحجرة لم ينبس بكلمة كل ما في الأمر أن ابتسامة رقيقة تعلو ملامحه بين الفينة والأخرى .

ونظرة عاجلة لوجهه تكفي لتعرف أنـه رجل عركته الحياة .. وهاهو الآن يهم بالحديث ، الأمر الذي أدى الى صمت الحضور على نحو يوحي باهتمام غير عادي، حيث لم يكن ذلك منتظراً ... وكان واضحاً منذ اللحظة الأولى أن كلماته تكاد تختنق بين شفتيه ومع ذلك فقـد سمعها الجميع .

قال : لن أحدثكم عن أجواء المعتقل ، ولا عـن الزنزانة رقم « ٥ » التي أمضيت فيها زمناً طويلاً فكل

ذلك معروف لديكم ، وكل ما تعرضت له من أساليب التعذيب لم يكن مفاجئاً لي فقد توقعته منذ البداية .

الأمر الوحيد الذي لم يكن في الحسبان هو أن أدفع ديناراً لأموات بثانية واحدة فقط . خيم الصمت برهة وعكست ملامحه مرارة تجذرت في الأعماق . وبدأ على الحضور ترقب واهتمام لمعرفة الأمر .

استأنف قائلاً :

منذ اللحظة الأولى لاعتقالي كنت على علم تام ،أن عقوبتي هي الإعدام ، وهذا ما حدث فعلاً .. فبعد سنوات من وجودي داخل المعتقل أصدرت المحكمة قراراً بإعدامي وصار هاجسي الوحيد ، ساعة التنفيذ ، كيف.. ومتى ؟ وقد تجلى ذلك في مخيلتي بأشكال وصور مختلفة كانت تنتهي في معظم الحالات بالسكون حتى التجمد أو البكاء المخنوق داخل أضلاعي أو التمرد حتى الصراخ ، ولولا نقطة الماء الباردة التي يجود بها سقف الزنزانة لأسلمت روحي لعوالم أخرى . لكن تتابعها المنتظم كان ناقوساً يشدني نحو الحياة بشكل مستمر وهي بهذا تؤدي وظيفة مغايرة تماماً لما وضعت من أجله .

وفي يوم اجتاحت المعتقل حركات متلاحقة ..صرير

أبواب •• أصداء متتابعة لسلاسل الحديد ، وقع أقدام مسارعة •• همهمات غير مفهومة •• كل هذا حمل إليّ الشعور بقرب تنفيذ الحكم ولا أدري كيف أصف لكم هذا الشعور ؟ يكفي أن تعرفوا ، أن قلبي قد اجتاز أضلعي ، ثم عاد للتباطؤ مع تلاشي الحركـــة في أروقة المعتقل ، لأجد نفسي في عالم آخر يتداخل فيه الواقع والخيال •

وفي كثير من الأحيان كنت أفقــد احساسي بجسدي المتعب لولا نقطة الماء الباردة التي تابعت إيقاعها رغم شبح الموت الذي لف زنزانتي •

وقع أقدام متثاقلة يقترب ، وأيدٍ خشنة تعبــث بالسلاسل التي أحاطت معصم الباب ، بينما استدار المفتاح في القلب الحديدي ، ومع استدارته ، تســارع وجيب قلبي حتى الثبات •• هكذا خيّل إليّ •

أمام باب الزنزانة انتصب رجل في العقــد الخامس من العمر كما اعتقد ، احتل شارباه مساحـــة كبيرة من وجهه ، واقترن حاجباه على نحو كاد يطفيء النــور في عينيه ، واللون الأصفر لشاربيه يوحي بمدخن قديم لتبغ معتق •

قال بصوت ينضح بلادة متأصلة:

ـ أنت نبهان السايس ،أليس كذلك؟

حاولت الإجابة ، لكن الحروف ، اختنقت في حنجرتي فأومأت برأسي موافقاً •

قال : أنا أبو جاسر الشناق•

أومأت برأسي مرة أخرى•

قال : لقد جئت إليك لأقدم لك المساعدة ،وأرجو أن تثق أني لم أفعل ذلك إلا لمن يستحق •

فأنا أعرف أنك لست قاتلاً ، ولا سارقاً وهذا ما دفعني لمساعدتك •

ورغم معرفتي بكل أساليبهم إلا أن شيئاً من الحياة دبّ في أوصالي وكأن أملاً لاح في الأفق •• وأود أن أعترف لكم أني لم أكن قادراً على المحاكمة بأبسط أشكالها•

لكن الاقتراب من الموت كما يبدو يدفعك للتعلق بأي خيط من أطراف الحياة • هذا بالتحديد ما شجعني على الكلام •

قلت له : شكراً لك • وكيف ستكون المساعدة ؟

صمت قليلا ثم قال : ألا تملك نقوداً ؟

كان السؤال مفاجئاً لي ، بل لم يكن في حسبـاني على الاطلاق ، ومع ذلك فقد أيقظ فيّ رغبة التفكير من جديد . وجعلني أقترب من ميدان الحياة ولو بمقدار .

عادت بي الذاكرة الى يوم اعتقالي.

قلت : منذ سنوات لم أمتلك نقوداً لكن ديناراً واحداً فقط كان بحوزتي يوم اعتقالي وهو موجود لدى ادارة السجن كما أعتقــد ،أو هكذا أفترض .

تدلت شفتــه السفلى على نحو يوحي بالاستغراب أو خيبة الأمل .. هكذا فهمت .

ثم قال : أنا أقبل بذلك . غداً سينفذ الحكــم وقد جرت العادة أن تعيد إدارة المعتقــل الأمانات لأصحابها كي يوصوا بها لمن يشاؤون ، المطلوب فقط أن توصي لي بهذا الدينار وسأقدم لك المساعدة التي تليق بك .

غداً سينفذ الحكم وادارة المعتقل ستعيــد الأمانات لأصحابها ..!؟

إذن ما نوع المساعدة التي ستقدمها لي؟

قال بعد أن مرّ بيده فوق شاربه :

لن أجعلك تتعذب كثيراً بحبل المشنقــة فإذا دفعت الدينار سأضع الحبل في مكان ما من العنق ، وستفارق الحياة بثانية واحدة أو أقل .. ومثل هذا لا أفعلــه إلا لمن أحب على أيــة حال أنت من يحدد ذلك، إما أن تمــوت بثانية ،أو أن تبقى معذباً لوقت أطول .

عند ذلك ورغم اقترابي من ساحة الموت ، استنفرت في رأسي كل الأفكار التي حُكمت من أجلهــا ،وانبعثت في داخلي رغبة في التحدي ، لكن غرابة الموقف نضحت من أعماقي كل ألوان الضحك التي حُرمت منها سنوات طويلة .. ودوّى صهيلي في أرجاء المعتقل وما استفقت إلا وجســدي يطفو على بحر من الدمع .

قد لا تصدقون ذلك ، ولكن هذا ماحدث .. ثــم صمت .

تنهد الحضور دفعة واحدة .. قال أحدهم : وماذا بعد فهاأنت جالس بيننا الآن ؟

ارتسمت على محياه ابتسامة واثقة ثم قال : يبدو أن صدر الوطن قد اتسع لي من جديد .



ضريح عويس

ضريح عويس

اللهم نسألك العافية ، بالأمس كانت بدره بتمام عافيتها ، واليوم بدت في غير حال انت خريف يا بدره .. ذهب ربيعك منذ زمن ، لقد جفّ الضرع ، وتساقطت أوراق الكرم وأنّى لها أن تعود ؟

هذا الانتفاخ الذي تلبس ذراعها حتى اضطرت الى تمزيق الثوب ، لا يبشر بخير لقد صار رأسها كحصاة صغيرة تميل على كتف جبل . وصوتها المخنوق ألماً يأتي من بئر عميقة ، صارت صخرة تعلو فراشها لا تستطيع حراكاً، وإن اضطرت لذلك علاّ صراخ مبحوح ينضح ألماً .

اللهم العافية ، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل صارت تتقيأ دماً الى حد تلوثت معه أطراف اللحاف

الأبيض بالعديد من البقع ، وصار اقتراب الآخرين منها يجلله الوجل .

أنتِ خريف يا بدره ، أفلت شمسك ، وتهاوى نجمك و ... زوجك سليمان الكايد هو السبب ، هو الذي حمل إليك كل هذا البلاء ، وطالما نصحناه مراراً ، إلا أنه فعل ، ولم يعتبر بكل الذين سبقوه في هذا الطريق .

حين امتدت يده لتجني حبات الزيتون فوق ضريح سيدي عويس . هل تعرفين يابدرة أن حبات الزيتون في هذه الشجرة تمتلىء دماً ؟ وقد حدث أن حاول كثيرون عصرها فما كان العصير إلا دماً ، وزوجك سليمان الكايد يعرف ذلك جيداً ، وياليته الآن يطلب المغفرة فسيدي عويس محب للصفح وسيعفو عنك إن كان زوجك صادقاً في طلب المغفرة ، بل يكفي أن يحمل معه حفنة من تراب لتعود إليك عافيتك .. هيا يا سليمان قم وافعل من أجل زوجك وأطفالك .. كل هذا وسليمان الكايد يقبع صامتاً يلفه الحزن وتحمل عيناه بدره ويختزن قلبه مآقيها المتعبة .

لم يعد يحتمل ألماً ، ولا يريد أن يسمع أكثر ...، لا بد أن يفلت اللجام .

لقد كاد الشيخ أن يقنع كل أهل القرية أن سليمان الكايد هو السبب في كل ما جرى لزوجته ، حتى نظراتك يا بدره تحمل عتاباً ، هل تصدقين ؟! ألم تعصري حبات الزيتون بنفسك ؟! ألا تذكرين نكهة الزيت الذي لوّن طعامنا منذ ذلك اليوم الذي قطعت به حبات الزيتون من جواز ضريح سيدي عويس ؟

اللهم الصبر .. إذا أفلت اللجام لا أدري ماذا سيحدث أو لا أدري ماذا سيكون مصير الشيخ .؟

الصبر يا سليمان الصبر ، لست الوحيد الذي ارتكب هذا الخطأ ، فأنا الذي أمامك وكلكم يعرف من هو الحاج مصطفى العلي .

منذ عشرين عاماً أو أكثر .. اللهم أعني على الصدق . ذهبت لقطاف شجرة الزيتون ذاتها ، « كانت أيام طيش شباب لم نكن نحسب حساباً لذلك » .

اقتربت من الضريح ، لا أكتمكم أن قشعريرة قد سرت في جسدي ، وخيّل إلي أن حجراً من الضريح قد تحرك وقد تذكرت ماحلّ بأبقار الحاج علي الوحش .

هذه حكاية أخرى سنعود إليها ـ فارتعدت أوصالي وسمعت صوتاً يقول :

لا تفعل ، لا تفعل . تراجعت قليلا ، وشعرت أن أشجار الوادي تزحف نحوي ، ثم تصاعد لهب أحمر من قلب الضريح فكاد أن يذهب ببصري ، حتى غدت الدنيا في ناظري ألواناً متداخلة ، وصار جسدي كتلة بلا وزن تهوي يميناً أو شمالا .

لم أعد قادراً على الحركة حتى سمعت صوتاً يأتي من بعيد : لا تتحرك يا مصطفى تعوذ من الشيطان واطلب المغفرة ..

كان الصوت مألوفاً ، إلا أني لم أستطع التأكد من مصدره ، إلا حين صحوت ، وأنا على ذراع الحاج علي الوحش رحمه الله ، ولو كان حياً لحدثكم بماحدث. رحمة الله عليه ..

تنهدت زوجة المرحوم علي الوحش وتناقلت أصابعها حبات سبحتها ثم قالت :

ما حدث لأبقارنا في ذلك العام لم يحدث في أي مكان ... ولو كانت المنايا بيد الله إلا أن الحاج علي قد توفي على إثرها بسنين قليلة . كانت الفاجعة حين تغافل راعي القطيع ، فاقتربت الأبقار من الضريح ، وراحت تنهش

أوراق الأشجار حوله وقد بال بعضها على ترابه ،وبعد ذلك .. اللهم عافنا .. في كل يوم كنا نفقد رأساً أو رأسين تنتفخ البقرة ، ثم تنفجر ،أو تصطك أسنانها فلم تعد تأكل ولا تشرب ثم تلوي عنقها وتموت .. عند ذلك ضحك البهلول شمسي الذي تبوأ زاوية من عتبة البيت ، بعد أن تلمس النقود الحديدية في جيبه ... اليوم بالذات جلبها من الوعاء الذي يغطي رأس سيدي عويص حيث يضع بعض الزائرين قطع النقود تقرباً وعلبة الدخان التي أمامه الآن على حساب سيدي عويس .

الصبر يا سليمان الصبر .. إذا أفلت اللجام لا أدري ماذا سيحدث ؟ ، ألا يكفيني حزنك يا بدره ، أنت وحدك من يعرف أني لست سبباً ، فلو كان ماقالوه صحيحاً لكان ذراعي قد تورم وليس ذراعك كل ما في الأمر أن ندبة صغيرة قد تلوثت ، حتى كانت سبباً في كل ما حدث.

أنت من يعرف أن الزيت هو الزيت ولم يك قط دماً .

أصلحك الله يا سليمان ،أما زلت هنا ،ألم تذهب لطلب المغفرة !؟ .. الى هذا الحد يسؤوك شفاء زوجك؟!

نهض سليمان الكايد مسرعاً ، وقد أفلت لجام صبره

وتبعه البهلول شمسي الذي أحس بفطرتـه أن شيئاً ما سيحدث •

استبشري خيراً يا بدره هاقد ذهب سليمان لطلب المغفرة ، وما أن يأتي بالتراب حتى يقضي اللـه أمره بالشفـاء•

على الطريق الترابي المؤدي الى ضريح سيدي عويص كان جسد سليمان يسابق ظله •

قد يحمل فأسي موتاً وليكن ، وقد يحمل شللا أو ربما لا شيء ، ولكن سأفعل •

قطع شروده أصوات النقود الحديدية المنبعثة من جيب البهلول شمسي الذي أعمل أصابعه بينها لتكون جرساً خافتاً يبعث في نفسه الطمأنينة •

اقترب سليمان من الضريح ، لفّه بنظرات متوثبـة ثم جال بعينيه زوايا المكان بدا متربصاً وجلا ، هـدأ الفأس بيمينه •• صوت الشيخ يبتلع أذنيه ــ زوجك سليمان هو السبب •••• ما بك يا سليمان ؟ ألم تشاهـد الزيت بأم عينك ؟ ألم تقطف الزيتون مراراً ؟•• ارتفـع فأسـه قليلا •

من خلفه انبعثت حركة سريعة مفاجئة ، ارتعدت أوصاله ، سقط الفأس من يده أوشكت قدماه على التسابق أحس رأسه جبلا ، منتفخاً ، وبللت جبهته حبات عرق باردة ، إلا أن قهقهة البهلول شمسي قد أعادت اليه الصحو ، التفت اليه ، رمقه بنظرة ثابتة ثم تنهد ،وغالبته ابتسامة خجلى .

ما بك ياسليمان ، نعن الله الشيطان ، مسح جبهته براحة يده المتعرقة وأمسك الفأس ثانية ، وبدأ بتفحص الحجارة المتراصة حول جسد الضريح ، بينما استمرت قهقهة البهلول تبتلع صمت المكان .

تطامن قليلا ، حتى آمسك شاهدة الضريح ، هزّها بهدوء ثم تراجع ، طارت نظراته في أرجاء المكان ، عاد الدم الى أوصاله حاراً متدفقاً ، عاود الامساك بها ، هزّها بعنف حتى تأرجحت وفقدت صلتها بالحجارة التي لازمتها منذ زمن ، عاود المحاولة مرات متلاحقة الى أن تهاوت بين قدميه ، أحس قشعريرة سرت في جسده دارت عيناه في كل مكان ،أمسك وعيه ، انتزع الوهم ، شعور بالانتصار بدأ يعزز فيه الاصرار ، تناول فأسه وراح يعالج الأحجار المتراصة التي تدحرجت في اتجاهات

مختلفة لتمنح الصمت صوتاً ماكان له أن يسمع لولا إصرار سليمان الكايـد .

استمر في اقتلاع الحجارة بينما راح البهلول شمسي ينبش في كل مكان بحثاً عن النقود التي اعتاد أن يلتقطها في كل يوم الى أن صار الضريح حفرة .

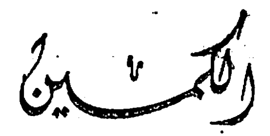
قفز البهلول الى داخلها وراح يرقص ويصفق بكلتا يديه ، أين أنت ياسيدي عويس ؟أين أنت ياشيخ القرية؟ ثم صمت قليلا .. لعنك الله ياسليمان الكايـد ومن أين تأتيني النقود بعـد الآن ؟ ومن أين سأجلب ثمن السجائر؟ ضحك سليمان بصوت مرتفع وتناقلت الهضاب صـدى صوته حتى خيّل اليه ، أن صوته قـد اجتاز المدى .

التهم بعينيه أشجار الزيتون المتعانقة فوق الضريح ثم مضى مسرعاً نحو القريـة وفي ذاكرته بدره في عـز شبابها ، بينما تبعه البهلول شمسي الذي دوى صوته بما حـدث .

زحفت القرية بكاملها الى مكان الضريح.

عقدت الدهشة ألسنة الجميع ، والتهمت قاع الحفرة آلاف العيون ، ودائرة الصمت المقدس التي لفت المكـان زمناً طويلا بدأت أركانها بالتداعي في حين تلاشى الشيخ بين الجموع التي داست أطراف عباءته .

الكمين



سكون حذر يلف الجبهة بكاملها ، والمتمرس بشؤون المنطقة يستطيع أن يقرأ شارات الخطر على وجوه الجنود والقادة .

أعماق الأرض تبتلع هدير الآليات المتحركة على الجانبين ، حتى الصخور التي نقف عليها تسربت إليها عدوى الاهتزاز .

أما الأفق الغربي فقد بدا متشحاً بالحمرة ،وكأن دماء الشمس قد سالت على رؤوس التلال في قلب فلسطين المحتلة ..

هكذا كانت البداية في هذه الليلة المعتمة ، وقد زاد في ظلمتها اطفاء الأنوار على الجانبين ، عدا بعض الأنوار الحمراء التي تلتمع بين التلال كجمر وسط الرماد.

كان علينا في السرية الأولى حماية المرتفع «ن١» وهذا يعني بالضرورة وجود كمين متقدم لضبط الممرات الاجبارية المؤدية الى المرتفع •

كانت الأوامر أن يتكون الكمين من الرقيب أول دعاس الأخرس والعريف ساكت قسبام والمجند هواش الملحم وأنا •

بدا لنا المرتفع «ن١» كتلة صخرية سوداء لبست أطرافها عباءة الليل ، وكأن هذا المشهد لم نألفه من قبل •• اجتياز الصخور كان أمراً صعباً للغاية ومع ذلك فقد قطّعت أقدامنا أوصال الليل في حركة دائبة نحو الأمام ، حتى خيّل الينا أن المرتفع «ن١» سيبرح مكانه راكضاً نحو الأمام •

المكان المحدد للكمين بدا قريباً بعد أن طوت التلال الخلفية قاعدة انطلاقنا •

هذا التجويف الصخري في قلب المرتفع هو الهدف ••

اندفع ساكت نحو القاع وسوّى مكانه جيداً ، ثم تبعه بقية الجنود في أماكن أكثر ارتفاعاً ، بحيث شكلنا معاً خطاً دائرياً يتجه نحو الأمام •

اتحدت أجسادنا مع صخور المرتفع .. العيون فقط هي الشيء الوحيد الذي امتلك فضاء المنطقة .

أمسكت اللفافة وهممت باشعالها .. ثم تراجعت على الفور ، فطبيعة المهمة تقتضي أن نخفي كل شيء حتى بريق العيون إن أمكن ..

هكذا تحدثت للجنود قبل الانطلاق.

تل قصر القابع على الكتف الجنوبي لبحيرة طبريا هو مصدر القلق ، فقد اعتدنا طوال السنوات الماضية أن نقاوم سيلا من دبابات العدو المتدافعة من أطرافه .

وفي هذه الليلة بالذات تواترت اهتزازات الأرض على نحو يوحي بحشد كبير لآليات العدو .

استمرت عيوننا تقاوم الظلام ، وامتلأت ذاكرتنا بالملاحظات ذات الدلالة في قاموس الحرب ..

وحين شرع الفجر بالنهوض خلف التلال انتقل الى موقعي بشكل سريع المجند هواش الملحم ، اقترب مني كثيراً انتقلت الي رائحة جسده المشتعل باليقظة ..ورائحة فمه المتعطش للفافة مشتعلة .

أشار بيده نحو شبح يتأرجح بين الصخور التـــي تستند اليها قاعـــدة المرتفع •• يبدوأحياناً متطاولا فـــوق صخرة ، ويختفي تارة حين يبتلعه اخدود •

وبين التطاول والاختفاء تأرجحت بنادقنا لملاحقـــة الهدف •

المراقبة المتواصلة لعناصر الكمين ، تشير الى أنه ليس الشخص الوحيد ، حيث بدأت تظهر على الجانبين،أشباح جديدة لعناصر الاستطلاع المعادي•

نسمات الفجر تنقل الينا حفيف أحذيتهم المطاطيـــة وهي تجوس الصخور بحذر مدروس وفي العمق البعيـــد كنّا نسمع صلصلة مخنوقـــة لجنازير الدبابات المعادية •

بدأت أناملنـــا تلامس الزناد كلما ضاقت المســـافة بيننا وبين عناصر الاستطلاع المعادي، وتعالى وجيب القلوب الى حد يصم الآذان •

ظلت أطراف الصمت تخيم على المكان ، وضـــاقت الحدقات المحمرة حتى استطاعت أن تفرز خيوط الليل ،وأن تعري العناصر المعاديـــة رغم كتل الصخر التي احتضنت المرتفع •• شعور بالفرح والتوجس يلف الجميـــع وبين الفينة والأخرى تطير العيون الى قمم الجبال المقابلـــة ،حيث

الومضات الحمراء المشعة لآليات العدو التي تندفع الى خط التماس .

إلا أنها لا تلبث أن تعود لالتهام الأهداف المتقدمة نحو مكان الكمين .

ساعة الصفر تقترب الآن وعقارب الزمن تتجه نحو لحظة الحسم النهائي فهاقد أصبحت العناصر المعادية على مرمى بنادقنا .

اندفع معظمهم الى موقع وسط من عناصر الكمين قف .. نار .. ودمدمت بنادقنا بصليات متلاحقة تناقلت صداها الهضاب والوديان المحيطة وهي تمتزج بأصوات الجنود التي انطلقت مزمجرة بعد أن أفلتت من عقال صمت طويل ..

خرَّ معظمهم صريعاً وتسمَّر الآخرون في أماكنهم .

هول المفاجئة أفقدهم القدرة على الحركة، وانعقدت ألسنتهم برباط الخوف .. عدا همهمات متلاحقة مخنوقة لرجالٍ يمسكون بآخر خيط من خيوط الحياة .

وبعد أن ألقوا أسلحتهم أرضاً جاست أيادي الجنود أجسادهم ، ومن مواقعنا الخلفية اقتلعت مدافعنا جدار

الصمت ، وأحرقت جدائل اللهب ما تبقى من خيوط الليل وتعالت أصوات المحركات وصلصلـة الجنازير في عمق الصخور وهي تعود مكسورة نحو الوراء.

بينما كنّا نعود بأسرانا الى مقر السريـة الأولى حيث جلس الخواجة ناحوم ومجموعته أمام الضابط المحقق.

وفي اليوم التالي كانت سيارة الجيب تطوي الطريق نحو العاصمة وهي تحمل الخواجة ناحوم ومجموعته يحيط بهم عدد من المقاتلين الذين اعتادوا هذه المهمة .



جنون الجنرال

جنون الجنرال

اعتقد الجنرال ليفي أن قبضته أحاطت بالمخيم ،إحاطة السوار بالمعصم ، وفي جلسة هادئة مع الصحفيين أشار مطمئناً الى أن آخر مظاهر الانتفاضة كانت حين نجحت قوات الأمن بانزال العلم الفلسطيني عن سطوح المنازل في أرجاء المخيم وتأكيداً لذلك فقد وعد الجميع أنه سيقوم بجولة ميدانية في الصباح الباكر مع عدد من الضباط ، وأصدر أوامره للجرافات بتعزيل الطرقات والأزقة من الحجارة المتناثرة لتتمكن سيارته من السير بهدوء تام .

في الصباح ارتدى الجنرال بزته العسكرية ومرّ بيده فوق الأوسمة المتراصة على صدره ثم خرج مسرعاً وسط الجنود الذين تتابعت طرقات أحذيتهم تحية له ،

وكان آخرهم ذاك الجنـــدي الذي تسمّر بجوار العربة ، وهو يمسك مقبض الباب الأمامي استعداداً لدخوله .

ألقى بجســـده فوق المقعد الأمامي ، بينما كانت عيناه تمتصان الأضواء المتلاحقـــة لآلات التصوير التي أحاطت بـــه .. وكان من الواضح أن شعوراً بالثقة يلف ملامحـــه .

فهاقد أمسك بيـــده الطرف العلوي لباب العربة ، بينما أسنـــد ظهره بشكل يوحي بالراحة التامة . حتى اذا رمق السائق بنظرة خاطفة انطلقت العربة تنهب الطريق نحـــو المخيم ، ومع اقترابها من المدخل كانت ثقة الجنرال تتوزع أشلاء على الأرصفة التي امتلأت بالمتظاهرين وبعد لحظات صار زجاج العربة ملحاً يعفر بزته ، بل الأكثر من ذلك أن العديد من قطع الزجاج قد تسللت الى فمه وانفـــه واستقر بعضها في ثنايا شعره الأشقر المتناثر ، ولاحت أمـــام عينيه الأعلام تخفق في الأنحـــاء كلها .. فوق أسطحـــة المنازل ، وعلى أعمدة الكهرباء وعلى واجهات المحال .. بينما لفظت بيوت المخيم أحشـــاءها فشكلت سيلا بشرياً هادراً يبتلع عربة الجنرال الذي راح يتقيأ دماً ، ويحاول عبثاً التراجع نحو الوراء .

بدا متوتراً جداً ، وعلا صراخه بالأوامر المتلاحقة لمرافقيه ..

أطلقوا النار .. أطلقوا النار .. أحرقوا الأعلام مزقوها .. وقد زاد في غضبه أعين آلات التصوير التي لاحقته منذ البداية .

حاول عبثاً أن يشيح بوجهه جانباً ، أخفى وجهه براحته أدار ظهره مراراً ، وضع رأسه بين ساعديه ، فبدا في العديد من آلات التصوير رجلا يترنح بدمه ، ويحاول عبثاً الهرب من حجارة المتظاهرين .

الى أن بدأت الطائرات المروحية التحليق المنخفض وتناثر الرصاص في الاتجاهات كلها ، وتدلت إحداها لالتقاطه .

تداخلت في رأسه الألوان حتى خيّل اليه أن الأعلام المنشورة في سماء المخيم قد تطاولت لتلف الطائرة بمن فيها .. فسرت في جسده رعشات متصلة كأنما مسّه تيار كهربائي .

لم تعد عيناه قادرتين على التحليق في فضاء المخيم ، ألوان العلم طوقت ذاكرته .

في اليوم التالي بدا الجنرال ليفي متوتراً حتى الرعب، فأصدر أوامره بمنع الصحفيين من الدخول الى مقره ، أو الاقتراب من المخيم ، ثم طلب الى جهاز « البوليس» السري ،إجراء دراسة عاجلة لكل من يمتلك آلات الخياطة في المخيم ، فقد أصبح هاجسه الوحيد ، منع انتشار العلم الفلسطيني بأي ثمن •

احتوت قائمة « البوليس » السري أسماء عديدة منها :

الحاجة نشمية الصفدي ــ خديجة الصفوري ــ عيشة الجمحاوي ــ محمد العكاوي وأسماء أخرى لمحال الخياطة في المخيم •

أصدر أمراً باعتقالهم ومصادرة آلات الخياطة الموجودة بحوزتهم ، ثم بدأت قوات الاحتلال حملتها لمصادرة الأعلام أينما وجدت •

عند ذلك اعتقد أن هاجسه قد تحقق ، فطاف بمروحيته في سماء المخيم والتهمت عيناه الحمراوان سطوح المنازل •

وعاد مطمئناً الى مكتبه ، ليحتسي كأساً من الشراب ، بينما عبثت أنامله بقوائم المعتقلين التي غطت منضدته •

إلا أن جرس الهاتف قطع أوصال الطمأنينة التي استمتع بها لوقت قصير .

.. آلو ، سيدي .. لقد عادت الأعلام كما كانت تماماً ، فوق الأسطحة وعلى الأعمدة والواجهات وفي كل مكان .. انتصب واقفاً ، وعلا صراخه من جديد ، وراح يضرب بقبضته أطراف منضدته فتطايرت قطع الزجاج وأحاطت به من كل جانب .

هذا الأمر يجب أن ينتهي الآن .. فتشوا البيوت ، والمحال .. والكهوف المحيطة وجيوب الرجال وصدور النساء .. وحقائب العفاريت الصغار ، فتشوا كل شيء يجب ألا يبقى في هذا المخيم خيط وإبرة .. انسفوا كل بيت يعثر فيه على خيط وإبرة .. دمروا المحال التي تبيع الأقمشة الحمراء والبيضاء والسوداء والخضراء .. بعد ذلك لن يرتفع علم في سماء المخيم .

بدأت قوات الاحتلال مداهمة المنازل ، وتوالت الانفجارات ، وازدادت أعداد المعتقلين وتمت مصادرة جميع الأعلام ولفائف الخيطان والابر .

جلبت جميعها الى مقر الجنرال أضرم فيها النار ، وتسلقت عيناه المتوحشتان ألسنة اللهب المتصاعدة .

أراد أن يرقص فخانته أردافــه ، أراد أن يغني فارتجفت الكلمات بين شفتيه ، صفق بيديه وتعالى صراخه ليسقط الأحمر وليسقط الأخضر والأبيض والأسود •• لتسقط كل الألوان في هذا المخيم ، عدا لوني أنا •

إختنقت قهقهات الجنود في صدورهم •• وبــدأوا بترحيل الرماد بعد أن داســه الجنرال بقدميه • هتف لزوجته : هذه الليلــة أنا أمتلك الزمن فلا أعــلام بعــد الآن ، لقد سقطت كل الألوان تحــت أقدام زوجك الجنرال فاختاري ماذا ترغبين ؟

وما أن استقرت السماعة على جســد الهاتف حتى انتفضت من جديد برنين متواصل التهم أعصاب الجنرال •

آلو •• سيدي •• لقد امتلأت جدران المنازل بالأعلام المرسومــة بالطباشير فماذا نفعــل ؟ انتصب كمن مسّه الجنون فألقى سماعة الهاتف أرضاً ودوى صراخ مرعب تدافع على إثره الجنود الى باب مكتبه •

لتسقط كل الألوان •• ثم بدأ بتمزيق الستائر في مكتبه وتحطيم كل الألوان الحمراء والبيضــاء والخضراء والسوداء •• وخرج راكضاً •

أغلقوا معامل الطباشير ، فتشوا المدارس ، ابحثوا في جيوب المعلمين ، اعتقلوا العفاريت الصغار .. دمروا كل شـــيء .

صادروا الملابس التي تحمل لوناً من ألوان علمهم ، لا أريد علماً بعد الآن .

استمر صراخه عالياً الى أن تهاوى متعباً وهو يتمتم العلم .. العلم ..

وقبل أن تغلق معامل الطباشير كانت العديد مـــن الأعلام المرسومة بألوان الباستيل واللون الزيتي قدزينت جدران المخيم ، واستمر الجنرال ليفي يهذي.

العلم .. العلم .. العلم .. حتى صار اسمه بين الجنود الجنرال . علم .



رحلة أيّوب العربي

رحلة أيوب العربي

أقسم أيوب العربي ، أنه لم يقصر بشيء ، وقد فعل كل ما من شأنه أن يضمن له حياة حرة كريمة .. وأي شيء يمكن أن يفعل أكثر من حيازته على اجازة جامعية؟ بل الأكثر من ذلك فقد استطـاع الحصول على اجازة جامعية أخرى في فرع آخر من العلوم .

وحين ارتسم الوطن في عينيه ورداً طرق بقبضته كل الأبواب ، لكن صوت قبضته ظل صدىً يتردد خارجاً ، وظل الرد المكرور يلاحقه « نعتذر لعـدم توفر الاعتماد » وظل الوطن عقداً يطوق ذاكرته ، وحمى تلتهم جوانحـه ، وعلى الرغم من تكدس الديون أبى المغادرة الى أي مكان آخر واستمرأ معركة الرغيف ، يحدوه الأمل بناصية النصر .

في هذا اليوم بالذات تحدث أيوب العربي لأصدقائه ، الذين لوحوا له بجوازات السفر التي تدلت من أطرافها صور وهمية ولقطع نقدية ملونة ، قال لهم : الرحيل هزيمة ، ولا يمكن لي أن أعيش مهزوماً ، وأي حمل سأحمله معي ؟ هل أحمل وطناً بكامله •

لكن سيوف الدائنين استمرت تلاحقه ، في كل مكان واستدارة الرغيف صارت طوقاً يلف عنقه •

أي معركة تخوض يا أيوب ؟ فسلاحك صدىء ، ونبض قلبك المحب حبيس أضلاعك ، بل الأكثر من ذلك ، إن حبك غدا سكيناً يرتد الى نحرك ، ومع ذلك تأبى الهزيمة •• فأي رجل أنت !؟

على أية حال ، أنت من يفهم ذاته ، ألست أيوباً العربي ، الذي اعتاد الصبر سلاحاً في معاركه كلها ؟•• لكن الصبر يا أيوب قد يودي بك ، وأي شيء يمكن أن تقدمه لهؤلاء الشاهرين سيوفهم ؟

لقد قدموا لك مبالغ من المال لتحصل على قوت يومك وأوهموك أنهم أهل خير تأتلف قلوبهم على محبة الجميع ، لكنهم مالبثوا أن ملكوك فصرت عبداً لهم •

ألست مهزوماً في ذلك ، وأنت الذي تأبى الهزيمة؟

لكنك يا أيوب تحمل وطناً •• وهل تقتل الأوطان أصحابها ؟

لا بأس أن يصير الوطن صرة مستديرة •• ضعها بين أضلاعك وغادر وحين يستبد بك الشوق لا بد أن يتضوع العشق من أطرافها ، فتمتلك القوة ، وتظل ممسكاً بأطراف العودة •

على أية حال الحرب كروفر ، ولا بأس أن تمضي الآن قليلا الى الوراء قبل أن تخنق باستدارة الرغيف،وقبل أن تصل سيوف الدائنين الى الوريد ، فتصير رقماً في جيش العبيد العاملين بنصف قوتهم •

رفض العبودية ،أليس انتصاراً ؟•• فأنت منتصر إذاً •• وما دام تراجعك الآن لا يعني الهزيمة الكاملة فلا بأس أن تمضي •• فكل البلاد بلادك ، ألم تتعلم : «بلاد العرب أوطاني ؟••» ألم تعشقها لحناً وكلمة وأرضاً هيا يا أيوب هيا •

انطلق أيوب العربي بتصميم لم يعرفه من قبل ، صار هاجسه الوحيد الآن بطاقة سفر تحمل أختام الدخول ، وأي فعل لهذه الأختام ؟!•

بها ، وبها وحدها تجتاز الحدود .. ألا تكفي بطاقتك الشخصية ، فهي تحمل سماتك لغة وشكلا وأوصافاً .

ولكن مادام الأمر كذلك فلا بأس ، ولعل صدى قبضتي الآن ، وعلى هذا الباب ذاته يسمع له صدى .

مقدمه : المواطن أيوب العربي.

سيدي : أرجو الموافقة على منحي جواز السفر اللازم للبلدان الشقيقة بقصد العمل .

توقيع ـ أيوب ـ

عدت في اليوم التالي ، وقد صار اليوم الذي أحلم به قريباً ، ليست أحلامي كباقي الأحلام كل ما في الأمر أني أحلم باللحظة التي أكون فيها حراً من قبضة الدائنين وباللحظة التي أثبت فيها للجميع أن الوطن عشق أبدي.

وقبل أن يكمل تفجرت احشاؤه بضحك متصل ، انتهى بسيل من الدمع يبلل وجنتيه ..

قال : ذيل طلبي بخط ناعم رقيق : « مع عدم الموافقة .. لعدم الاستغناء عن خدماته ».

ثم اتصل الضحك ، وازداد سيل الدموع .

« الصبر يا أيوب العربي•• ألست أيوباً يارجل؟»

لكن كيف لك أن تحتمل ذلك ، وكيف لك أن تفهم ما يجرى « نعتذر لعدم توفر الاعتماد ، ولا نوافق لعدم الاستغناء عن خدماته »•

ولا أكتمكم ــ أن العبارة التالية أعادت إليّ شيئاً من التوازن ، حتى مشيتي صارت على نمط معين ، ينسجم الى حد كبير مع شعوري بأهميتي الخاصة •

طبعاً •• أنت مهم •• لا يستغنون عن خدماتـــك ، كيف لا ، وأنت لا تعمل منذ زمن ؟! لكن الأمر يجب ألا ينتهي بهـــذه السهولة فالحصول على بطاقـــة السفر أمر هام ويجب أن يتم •• سيوف الدائنين لا ترحم واستدارة الرغيف تطوق عنقي ، وأعناق الصغار من حولي•

قلت : عليك يا أيوب أن تتنازل قليلا ، وأن تحدث بالأمر ذوي الأمر ، ولا عيب في ذلك ، ما دام مبتغـــاك واضحاً ، وما دمت تحمل الوطن صرة بين جناحيك،وليست المغادرة إلا سبيلا لقوتك ، والأكثر من ذلك ، فأنت لـــن تغادر بعيداً ، ستبقى في حديقـــة الوطن التي لم تبرح ذاكرتك يوماً • قال لي أبو سحبان وهو الاسم الجديد

الذي اكتسبه بعد أن غادر حيّنا وقـد كان اسمه سابقاً « أبو صندل ».

لا عليك يا أيوب .. هات طلبك ولا داعي لذهابك الى دائرة الهجرة فأنا أبوسحبان وأنت تعرف معنى ذلك .. لا بأس .

مقدمه : المواطن أيوب العربي:

أرجو الموافقة على منحي بطاقة السـفر اللازمـة للبلدان الشقيقة بقصد العمل .

توقيـع ـ أيـوب

في اليوم التالي ، كنت أتوجس خجلا وأنـا أحاول طرق باب « أبو سحبان » لمعرفة النتيجـة ، وبعد تردد لامست أطراف أصابعي الجرس الكهربائي فعانقت مسامعي أنغام الموسيقى المنبعثة من الداخل وعلى هديها ، تهادى أبو سحبان مبتسماً ، يحمل بيمينه مغلفاً .. لا عليك يا أيوب .. بطاقة السفر جاهزة تماماً ، وليس عليك إلا أن تفي بالتزامك .. اللهم أعني على خدمة الفقراء والمحتاجين.

قلت في سري طيب يا « أبو صندل » لك ماتريد.

لفني بنظرات مخادعة ، حتى ظننت أنه فهم مابداخلي فداريت وجهي ثم انصرفت الصباح رباح يا أيوب ، فاحزم أمتعتك على مهل ، وليس في الأمر مايريبك .. الحقيبة الخضراء بكل ما فيها من لوازم رافقتك في سني دراستك ولا جديد ، فمحتوياتها ثابتة ولم يطرأ عليها جديد منذ زمن .

إذن : النوم لساعات قبل المغادرة أمر مفيد .

ألقى رأسه فوق وسادة محشوة بأحزانه ، وعلى أهدابه طافت أحلام العشق .. الوطن بكامله صار موجاً يحمل أوجاعه ، أمه وأطفاله .. زوجته .. أصدقاءه، أطفال الحي كل هؤلاء قناديل حب تنير ذاكرته .

لا أنوي وداع أحد ، فلست ممن يحتملون ذلك ، كل مافي الأمر ، أنا وحقيبتي الخضراء سنكون مع ساعات الصباح الأولى على الحدود .

ولماذا الوجل يا أيوب ؟ فأنت لن تكون غريباً هناك، كيلو مترات فقط ستفصلك عن هاهنا ، ثم ألست من الصابرين دوماً ؟ ألست أيوباً يارجل؟

كان نوماً متقطعاً لرجل أضناه الانتظار ، وحاصرته الخشية من فوات الفرصة التي سعى اليها ، ومع نهوض

الشمس ، كانت حقيبة أيوب تحتل مكاناً على خاصرته ، وتواكب حركات أقدامه المتسارعة نحو الحافلة التي ستعبر الحدود بعد ساعات •

هناك وفي المكان المحدد للانطلاق ، تتابع الجميع في الصعود الى أماكنهم ، ومع ارتفاع هدير المحرك ،راحت العيون المحزونة تلتهم التراب في الاتجاهات كلها ، وترقب باهتمام نقطة الحدود •

لماذا الحزن يا أيوب ؟•• غداً ستعود ، أليست الحرب كراً وفراً ؟؟

أليس الوطن محفوظاً في صدرك وبين جناحيك؟ •• فأنت إذاً تملك كل شيء ، وستبقى رائحة الوطن جسراً يربطك بأهلك وأصدقائك •

لست مهزوماً بل •بل تحاول الخروج من الهزيمة• أنت مهزوم لو خرج الوطن من جانحيك •• قطع شروده اهتزاز الحافلة ، وتسمرها أمام حاجز حديدي ، أحاط به الجنود من الجوانب كلها وخفقت على جانبيه أعلام زاهية أطلقت أطرافها للريح•

على الجميع أن يسلموا بطاقات سفرهم ، والالتزام

بأماكنهم ، وعدم التحركَ إلا بايعاز لاحق • أما المستر جون والمستر كلارك والسيد دوغلاس •• فعلى الرحب والسعة •

هدوء الركاب التهمته أحذية العسكر ، وعكست الوجوه قسمات اعتراها الوجل والترقب وقد عزز ذلك نظرات الشك المتلاحقة لجنود الحاجز الحديدي •

لا بأس ، ساعة وتمضي •• لكن الأمر كما يبدو ليس كذلك •• فهاقد صار الركاب جزءاً من مقاعدهم ، وصارت حركة الأقدام حلماً يمارسه بعضهم خلسة في مكانه ، وانحسرت حركة العيون في محاجرها ، وصار لزاماً عليك أن تجتر مافي الذاكرة لتواجه الزمن الذي أنت فيه الآن •• بل الأكثر من ذلك يجب أن تستنفر كل مافي عضلاتك من قوة للسيطرة على بعض الحاجات في جسدك وليس من حقك التكلم ، ففي ذلك خرق صريح لسيادة البلد الذي نقف على حدوده الآن ، كل هذا حمل إليّ شعوراً خاصاً •• من المؤكد أني ممنوع من الدخول ، ولكن لماذا ؟

لم أفعل شيئاً ؟ ولم يسبق لي المرور من هنا إلا على جناح الأفكار التي آمنت بها وإذا افترضنا ذلك ، ما شأن باقي الركاب ؟ ••لا •• إجراءات ستأخذ مجراها وسنتابع

بالتأكيد ، وما دام المستر جونز وكلارك ودوغلاس قد سمح لهم بذلك فليس من المعقول أن نمنع نحن !»

فيض من التساؤلات لم أجد لها اجابة واحدة ، على الرغم من محاولاتي المتكررة لقراءة ملامح الجنود ، وكانت النتيجة دائماً .. لا شأن لهم ، الكمبيوتر فقط من يحدد ذلك وفق البرنامج الموضوع من الجهات الأعلى .

على أية حال لا داعي للتساؤل فهاقد أقبل الضابط المسؤول ..

استدارت عيناه لتبتلع الوجوه دفعة واحدة :

من منكم أيوب العربي؟

وقف الجميع في أماكنهم ، قال : كل من يحمل هذا الاسم ممنوع من الدخول ، لماذا ؟ وكيف ؟ .. لاداعي للمناقشة فهذا أمر الكمبيوتر .

بعد لحظات كان السائق يدفع مركبته نحو الوراء وفي كل مقعد من مقاعدها تسمّر أيوب العربي يمسك محفظته الخضراء .

عند ذلك اشتعل الجمر في صدري ، وانفلتت أطراف الصرة بين أضلاعي وتضوعت منها رائحة النار .

أحلام الجندي بعلوف

أحلام الجندي يعكوف

قال يعكوف لرفيقه :

ليفي أرجوك .. أريد أن أنام ولو لحظة .. فهـذا حلمي منذ أيام .

لا مجال للنوم يايعكوف ، ولا يغرنك هـذا السكون فهذه المدينة حين تسكن فإنها تقبض على بركان ،وسكونها يرعبني أكثر من أوقاتها الباقية .

أرجوك لم أعد قادراً على الحركة .. لحظة واحـدة فقط ، وقبل أن يكمل كانت زجاجات الملتوف تلتهم الحافلة التي احتمت بجدار قديم ، واحتضنت الأزقـة والشوارع آلاف المتظاهرين الذين أحاطوا بالجنود من الاتجاهـات كلها وبدا يعكوف متثاقلا .

يحاول عنوة الفرار من حجارة المتظاهرين ، وبعد عراك طويل ، ابتلعت المدينة موجها استعداداً لسيل جديد.

ألقى يعكوف جسده المتعب على جدار قريب،وبعينيه المتعبتين حاول التهام الفضاء..

متى كان النوم حلماً يا يعكوف !؟ النـــاس كلهم يعلمون أن الأحلام تولد في طيّات النوم ...أما أن يكون النوم حلماً فهذا لم أكن أتوقعـــه على الأطلاق.!

قالوا لنا :

نابلس قطعـــة حلوى يسهل مضغها ، نابلس فاكهـــة لذيذة يسهل اعتصارها . وها قد مرت الشهـــور ولم تفعل شيئاً ، حتى فياض الأعور الذيأرعبنا بهجماته المتلاحقة لم نستطـــع القبض عليه .. رغم علمنا الأكيدانـــه موجود هنا أو هناك .

ولكن ماذا تفعل اذا كان الجميع في هذه المدينـــة هم فياض ..؟

ليس فياضاً فقط ، العجوز أم دحـــام قاتلتنـــا بحذائها المهترىء ، والولد العفريت ابن الطنبرجي أقلـــق راحتنا أياماً بلياليهـــا .

إنهم جميعاً هكذا ولا جدوى من محاربتهم •

استدار برأسه قليلا ، وسرحت عيناه في الشارع المقابل ، تثاءب وضع رأسه بين يديه ، اعتصر دماغه ، فرك عينيه براحتيه شاهت رؤيته ، ثم أسند رأسه للجدار •

أطبق جفنيه ، اختزن فيهما ذاك الوجه الأسمر الذي هاجمه آخر لحظات العراك •

ارتعش جسده ، حاول التخلص من هذا المشهد قذف الوجه الأسمر خارج جفنيه ، ثم اسبلهما في محاولة جديدة لسرقة لحظة من الهدوء ، عاوده المشهد من جديد لكنه في هذه المرة وجه فياض الأعور تحديداً •

أرعبه المشهد ، ارتعدت أوصاله ، ثم دفع بقدميه نحو رفيقه على الرصيف المقابل •

ليغي أرجوك •• أريد أن أنام ، لم أعد قادراً على الرؤية ••هل أنت كذلك؟

منذ أيام وأنا أحاول دون جدوى ، وكلما نجحت في اختلاس لحظة طوقتني وجوههم يبدو أن هؤلاء سكنوا جماجمنا •

ابتعد •• ابتعد يايعكوف •• دولاب مشتعل يطوي

الشارع نحونا ، عاد يعكوف الى مكانـه ويده على الزناد رقص الدولاب وسط الشارع ثم التوى وهو يلفظ احشاءه نهباً متواصلا كشف وجوه الجنود الموزعين في أرجـاء المكان ، ومع آخر الذبالات المشتعلـة كانت عيون الجندي يعكوف تمسك بقايا بريقهـا ، ورغم قساوة الجـدار الذي يتكىء إليه ، طار بأحلامه الى مخدعه .. وراح يغمغم منهكاً أحاط بذراعيه جسد زوجته .. التهم وجهها ، وباندفاع محموم حاول وصلها .. وحين همَّ بهـا وجد حجراً يسد فرجها .

انتفض مرعوباً .. عرك وجهه براحتيه ، جال نظره زوايا المكان .. بقايا النار ما زالت تبص وسط الرماد الذي خلفه الدولاب المحترق .. وصوت حذاء ليفي مـا زال ينبعث متعباً على الرصيف المقابل ، نهض من مكانه حاول مغالبـة النوم ... ود لو يمشـي قليلا للتخلص من كوابيسه ، حمل قدميه ببطء شديد وقبل أن يبعـد عاد مرة أخرى .. تسمَّرت عيناه في الفراغ ، حاول استعادة هدوئه .. هاله منظر زوجته ، عصفت بـه رغبـة جامحة لمشاهدتها .. لا .. لا ليس معقولا ما رأيت !؟

لحظة واحدة من النوم تكفي ، سأفعل ، وليكـن

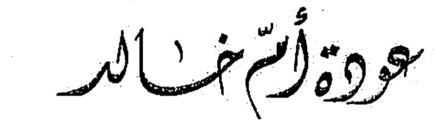
ما يكون . تثاءب .. أطبق جفنيــه ، تباعدت شفتــاه ، في خياشيمه تزاحمت أنفاس محترقة .

وقبل أن يطير بأحلامه ، تدلى شاب ملثم من أعلى الجدار ..

صرخ .. ليفي..أرجوك.

وغاب صدى الصوت وســط الأمواج الجديدةالتي ولدتها المدينة .




عودة أمّ خالد

عودة أمّ خالد

الأفق الذي اعتدناه مغسولا بالشفــق ، يبدو الآن محترقاً ، تلتهم أذياله ألسنــة اللهب المنبعثة من جبــال الدخان المتحركة ، بينما تلاحظ التماعات متصلة لقذائف المدفعيــة المضادة للطائرات تخترق كتل الدخان السوداء ، لتحف بالطائرات المعادية من الجوانب كلها ، تلك الطائرات التي اندفعت باتجاهات مختلفــة لتشيع الرعب في القرى الآمنــة .

وها أنت الآن ، ترى مزيداً من جبال الدخان تولــد من عمق الأرض ، بينما تتراقص على قممها أشلاء أشياء مختلفة ، ربما كانت أشلاء آدمية أو حجارة متشظيــة أو قطعاً معدنيــة لأشياء مدمرة ، تحلق في الفضاء لبرهــة من الزمن ، ثم تهوي متناثرة دونما اتجــاه محدد ...

بيوت القرية تهتز بشكل عنيف ، وتحاول عنوة التماسك أمام الهـزات المتلاحقة التي أحدثها القصف بينما تزحف الجموع تجـاه الغابات المجاورة درءاً للقذائف • يخيـل إليك أن القريـة قد لفظت أحشاءها لتغذي السيل البشري المتدافع الذي اختلطت فيه الأصوات ليشكل صورة متداخلة لأطفال وعجائز وحيوانات ، ورجـال اعتادوا هذا المشهد، ومارسوه لسنوات متعددة •• توزعوا سريعاً •• انبطحوا من يود إطلاق النار عليـه الابتعاد عن الجمع هكذا كانت تلهج بعض الحنـاجر التي اعتصرتها التجربة ، وكثيـراً ماكانت تغيب هذه الأصوات في جوف الانفجارات المتتابعة•

وحين تنظر الى الخلف تلاحظ كتلـة سوداء بعيدة تتحرك حيناً وتثبت أحياناً ، إلا أنك تواصـل السير مع الجموع ،فليس لديك الوقت للتثبت منها ، فكل لحظـة تؤذن بتحول جديد •

داهمنا الغابة ، وتوزعت الأسر بين الأشجار والمغاور وبدأت الكتلـة السوداء بالاقتراب •• لهـا حركة آدمية متباطئة •• تقترب أكثر فتتأكد أنها امرأة •• تقتـرب الى حيث الجموع فتعرف أنهـا العجوز أم خالد ، التي تجـاوزت التسعين •• يبدو أنها وحيدة ، لقد تركت بلا

شك أبا خالد المسكين الذي أقعده الشلل منذ عشرين عاماً على الأقل •

ينتابك الحزن ، وتوبخ نفسك•• أين مروءة الرجال؟ كيف لنا أن نترك مسناً تحت القصف •• وتواسي نفسك الحي أبقى من الميت ، ولكل إنسان قدر •

التجأت العجوز الى إحدى الأسر التي احتمت بشجرة بلوط كبيرة ، تسألها النسوة ، كيف تركته ، فلا تجيب ، وتكتفي بأن تمسح الدمع • خيم الظلام وهدأت حركة الأطفال ولم تعد تسمع سوى همهمات بعض الرضع كلما انتاب أحدهم رغبة في ابتلاع ثدي أمه ، أو حفيف حذر لأوراق الأشجار •• وتلاحظ هنا وهناك إشعاعات متفرقة لسجائر مرتجفة مخنوقة أصر أصحابها على رشفها إلا أنها كثيراً ما كانت تختفي حين تحلق الطائرات المعادية في سماء الغابة ، وبين الفينة والأخرى تسمع أصواتاً متداخلة تعقيباً على سقوط بعض القذائف أو انفجار بعض الطائرات المعادية ، أو اطلاق بعض الشبان المتحمسين لطلقات نارية متفرقة تجاه الطائرات المعادية حين تهبط الوادي هرباً من قذائف المدفعية •

الانفجارات الآن بدأت بالتباطؤ ، وسكون نسبي

يقطعه دوي هائل لقذائف مدفعيـة الميدان بدأ يخيـم على المنطقة إلا أن التجربة تؤكد أن المعارك ستكون على أشدهـا في الساعات الأولى للصباح ، الأمر الـذي يمنع الكثيرين من العودة الى القرية ، باستثناء بعض المتطوعين من الرجال والنســاء الذين ينقلون المؤن لمواقع الجنود، ينتصف الليل ولا تخلو السماء من قناديل الاضـاءة ، ورشقات متقطعة لأسلحة مختلفة .

وفجأة يسمع صراخ شديد لامرأة مقهورة ،أيقظتها صحوة الضمير وحركت أوصالها أصالة الوفـاء الكامنة في نفسها ، ما بك يا أم خالد ؟.. اهدئي قليلا ، مابك.؟

سأعود حالا الى القريـة إن صوته يدوي في رأسي كلما حاولت النوم .. أيتها الخائنة هل فقـدت الذاكرة ؟ اهدئي قليلا يا أم خالد ..إن الحي أبقى من الميـت ،ولا يمكن أن يكون حياً الآن .

إلا أنها تجاهلت كل شيء ، ولم تعد تسمع إلا صوته يناديهـا .. ومع الساعات الأولى للصباح كانت تدب كتلـة سوداء في الطريق المؤدي الى القريـة بينما تعلقت بأطرافها عيون الكثيرين .

ابتعدت قليلا ، وبـدأت بالتضاؤل الى أن أصبحت نقطة صغيرة في نهايـة الطريق ، إلا أنها واضحـة لكل الناظرين رغم أعمـدة الدخان التي بدأت بالتصاعد مـن جديد .

يبدو أن اللحظات القادمة حبلى بالاحتمالات الخطيرة فقد اتخذت المعارك شكـلا صدامياً في معظم المناطق المحيطة بنا ، في حين صمتت بعض المواقع الأخرى ، وقد بدأت الطائرات المعاديـة الاغارة على الغابات في محاولة لاخراج الأهلين الموزعين فيها .. النار تشتعل في كل مكان وكثير من جذوع الأشجار تطايرت مع حديد القنابل في حين لم تتمكن القذائف من اقتلاع بعض الأشجار التي رسخت جذورها في الصخور . تتابـع سيل القذائف وتطاولت ألسنة اللهب وبدأت الجموع العزل تتأبط الجبال طلبـاً للنجاة . تداخلت الأصوات .. صراخ الأطفال العالقين بأذيال أمهاتهم يرسم على السفوح مستقبلا أحمر ،وأصوات الرجال المتعبين تلخص عبء السنين .

بعض المواقع ما زال مستمراً في القتـال ، الأمر الذي يبعث الأمل رغم أن الكثيرين قـد اجتازوا النهر .

صيحات الأطفال بدأت بالتباطؤ حتى غـدت أنيناً

متعباً ، والوجوه المعروقة اتشحت بالسّواد ، أنهكهـا عراك الجبال وصراع الموت •

يخيّم الظـلام وتغدو الجموع أشباحاً موزعة على ستائر الليل •• يخطر لك الآن بعـد أن أصبحت على الضفة الأخرى أن تنظر الى الخلف •• لترى العدل مصلوباً في عمق الوطن على أعمدة النيران المتصاعـدة ،•• لتـرى أشلاءك على كل قمة من القمم التي خلفتهـا تمر أمامك تلك الأشجار التي صمدت في وجه القذائف وبقيت جذورهـا تمسك بحبات الأرض ••• تصمت قليلا •• تسمع أغاني الصرصار الحذرة فتهيج بك الذكرى الى بيـادر القرية ، يغلبك البكاء ، لكن الدمع يتجمد في محجريك •• تخرج لفافـة ، وتشعل عود الثقاب ، تحاول أن تطفىء اللهب، تنظر اليه بإعجاب ، لقد صرت عاشقاً للنار تمج لفافتك فتتقـد نارها ثم تمعن النظر حتى ليخيل إليك أن هـذه الجذوة الملتهبة قد أصبحت بحجم الكون •

تعاود النظر في أفق الوطن الذي أدرت له ظهرك مرغماً •• إنك لا تستطيع الآن أن ترى أم خالد •••لكنها أصبحت تحتل مساحة الذاكرة ، لقـد شاهدتها منذ أيام نقطـة في بداية الطريق أو نهايته •• إن ذلك لا يـهم فهي على كل حال في طريق العودة •

تمر أمامك السنون شريطاً متواصلا من الكد يقطعه دوي هائل في أكثر من مكان فتنفض واقفاً وترى النهر خاشعاً تحت قدميك .. وتعود لتصبح أم خالد عيناً تحميك بأهدابها .

وفي يوم قائظ كانت شمس الهجير ، تبث شعاعها فتحيل الحجارة الى جمرات ملتهبة سجل الراصد في منطقة الحدود ملاحظة جاء فيها :

في تمام الساعة الواحدة ظهر هذا اليوم ، قامت شاحنة « إسرائيلية » بالقاء عجوزين في منطقة الحدود بطريقة القلب الآلي .

وحين دعيت أم خالد للادلاء بشهادتها أمام السلطات المختصة قالت :

لا أدري من أين أبدأ فلكل بيت في قريتنا حكاية بعض البيوت تهاوت أمام الجرافات وبعضها الآخر تطايرت حجارته مع العبوات الناسفة ، وبعضها التهمته النيران كل ذلك حدث بعد أن نهبوا كل المحتويات ، لم يبق شيء الحجارة سرقوها وأخذوها بعيداً لبناء ملاجىء لهم في أماكن أخرى .

حتى حيوانات القرية لم تعد بعيـــدة عن بطشهم ، فمنذ اليوم الأول للاحتلال جمعوا الأغنام والأبقار والحمير وحملوها في شاحنات خاصة الى حيث لا أدري ••• ثـــم تضحك وهي تبكي ترتجف حبات الدمع على شفتيها •• حمار الحاج «أبو سعيـــد » رفض الصعود الى الشاحنة ضربوه كثيراً ثم دفعوه ولكن دون جدوى ، وأخيـــراً رفس أحد الجنود فألقاه أرضاً فأطلقوا عليه النار وخرَّ مقتولا ، وعيناه تدمعان ، وكذلك أطلقوا النار على بعض الثيران التي لم يستطيعوا تطويعهـــا ، أمامسجد القرية فياويلهم لقد أحالوه مكاناً للرقص •• دنسوه بخمرهم وعهرهم ••. ومنذ أيام مرَّ بنـــا مجموعة من شباب القرية فأرشدناهم الى بعض أماكن التجمع لجنود الاحتلال ، فأغاروا عليهم مع خيوط الصباح ، وفي اليوم التالي جاؤوا إلينا وبدأوا بتعذيب المسكين « أبو خالد » داسوابأحذيتهم على عنقـــه وأحرقوا جسده « بالسجائر » وكلما حاولت التدخل ركلوني بأقدامهم أو أعقاب بنادقهم •

قالوا لنا : أرشدونا الى مكان المتسللين وإلاقتلناكم « إنهم لا يعرفون الأرض ومداخلهـــا ولن يعرفوها ولو بقوا مليون عام •• كيف نفعل ذلك ؟! فهؤلاء أبناؤنا عشنا معهم سنوات طويلـــة في هذه القرية ، ولما تيقنوا من رفضنا

وضعونا في شاحنة وألقوا بنا على الحدود بتهمة إيواء الفدائيين والتستر عليهم ، ثم مسحت دمعها : صدقوني إنهم جبناء يعيشون في رعب دائم ، كانوا يخافوننا كثيراً رغم حالتنا التي ترون فكيف لو بقي سكان القرية بكاملها؟ إنهم يخافون من كل شيء ، من الأرض ، من الحجارة من الأشجار .. كثير من الأماكن لم يدخلوها حتى الآن واكتفوا بمراقبتها من بعيد .

ثم تكرر هذا الحديث مع تفصيلات أخرى كلما التقت أم خالد سكان القرية الموزعين في أنحاء مختلفة من الوطن .



ندى الحصاد

نـدى الحصـاد

لم يكن أحد يتصور ، أن مصلح الحاصود سيكون صالحاً لمثل هذا العمل الذي يقوم بـه الآن ، فالجميع يعرف ،أنه يجيد فلاحة الأرض ، ويستطيع أن يحدد الى أي مدى تؤثر غزارة الأمطار أو ندرتها على المحاصيل ، بل أكثر من ذلك ، إن نظرة واحدة منه لصحن السماء تكفي للخروج باستنتاجات مفيدة لباقي الفلاحين في القرية حتى الرياح لها مدلولاتها في عقل مصلح الحاصود فالرياح الجافة مثلا تلحق الضرر بسوق القش أيام الحصاد والأيام الأكثر نداوة هي الأفضل، وقد عرف عنه تتبعه الدقيق لزارعة المحاصيل منذ أن تكون عشباً طرياً ، الى أن تصبح حباً ناضجاً ، ناهيك عن فهمه الشامل لكل أدوات الفلاحة والحصاد وتتبعه المستمر لمصطلحاتها .

حتى أن مجلساً للفلاحين لم يعقد ، إلا وكان مصلح الحاصود ركناً أساسياً فيه .

كل هذا كان قبل نزوحه عن قريته ، أما الآن فقد اقتضت الظروف أن يكون مستخدماً في الجامعة هذا العمل الذي لم يتصور قط أنه سيقوم به ، بل كان من المستحيل أن يتصور ذلك ، فالامساك بصينية الشاي أو القهوة لا تشبه بحال ، الامساك بالمنجل أو المحراث وصوت الجرس الذي يصرخ تحت أنامل السادة ، لم يكن يعني له شيئاً بل لم يسمعه من قبل .

فكيف له أن يستجيب دون أن يناديه أحد باسمه الصريح .. « مصلح الحاصود أو أبو الهمايم » واذا وضعنا هذا جانباً ، فكيف يمكن له أن يفهم المصطلحات الخاصة بعمله الجديد مثل « قهوة مزبوط ، أو قهوة تركي ، أو شاي اكرك عجم ، وما الى ذلك !؟ » .

فالقهوة عنده هي القهوة والشاي هو الشاي ، والأصعب من ذلك حمله الشاي أو القهوة الى مكاتب الموظفين دون أن ينزاح السائل من أطرافها ليتجمع في قعر الصحن الذي يحتضن أسفل الكأس مما يعرضه لملاحظات مستمرة ، وعلى الأخص من قبل الموظفات

المتأنقات ، وكثيراً ما أمر باعادة المشروب ليعود بشكل أفضل .. حتى كوفيته وعقاله صارت عبئاً عليه في عمله الجديد ، بعد أن كانت رمزاً لكبريائه ، فكثيراً ما تدلى طرف الكوفية ، وانغمس في كأس الشاي أو القهوة الأمر الذي يدعو الى وضع الصينية جانباً ، الى أن يسوّي كوفيته من جديد .

لم يكن يتصور قط ، ان هذا العمل سيكون لائقاً به لكن أفواه الصغار لا ترحم أحداً وإن هو لم يفعل ابتلعته المدينة بكل قسوتها ، وصار أطفاله كهؤلاء الذين يشاهدهم كل يوم على قارعة الطريق يستجدون المارة .

« امرك لله يا ابا الهمايم ، لعن الله ذاك اليوم الذي غادرت فيه القرية ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل لم يكن أمامي إلا خيار واحد ، النزوح أو الموت ، ويا ليتني اخترت الموت ؛ على أية حال لا عيب فيما أفعل مادام قوت الصغار متوقفاً على ذلك ».

أفاق من شروده على صهيل متواصل لجرس المكتب المجاور ، سوى كوفيته ثم انطلق ، أدار مقبض الباب الخشبي وألقى بجسده داخلا .. نظر إليه الموظف القابع خلف الطاولة مستغرباً ماذا بك يا ...؟ وكيف لك أن تدخل دون أن تطرق الباب؟

حاول مصلح الحاصود أن يتكلم لكنه لم يعثر على كلمة مناسبة ، واكتفى بأن تسمّر في مكانه تابع الموظف الجرس الذي سمعت للمكتب المجاور •• هيا انصرف ، حملت قدماه جسداً هائلا وانسحبتا ببطء « جسدك ياأبو الهمايم كان يحسب له ألف حساب بين رجال القرية» •

حاول أن يطرق الباب المجاور ، إلا أن الصهيل المتواصل لجرس المكتب لفّه بشيء من الارتباك •

أدار مقبض الباب بشكل فوري ، بعد أن تلمس عقاله •

جاءه من الداخل • صوت ندي لسيدة جميلة •• قهوة وسط يا •• استدار على الفور دون أن يتكلم ثم ما لبث أن عاد مسرعاً بعد أن جاءه الصوت أغلق الباب يا •• ماذا بهم لا يعرفون اسمي••؟ تسللت الى وجهه ابتسامة •• تصور أن زوجته خضرة هي التي تجلس خلف الطاولة « ولكن أعانك الله يا خضرة ، من أين لك مثل هذه السيقان ومثل هذه الرائحة » •

ثلاث ملاعق من السكر تكفي لأن تكون القهوة وسط كما اعتقد ، وماعساها أن تفعل فالقهوة هي القهوة ••

أشعل سيجارته وسرحت عيناه نحو بوابات البهو، بمداخله المختلفة حيث حزم السيقان المتتابعة لفتيات الجامعة ، إلا أن اندفاع القهوة خارج إنائها بضغط حرارة الموقد ، قطع عليه متعته وزاد في الأمر سوءاً ، الحاح الجرس المتواصل من مكتب السيدة .

« لعن الله ذلك اليوم الذي كان سبباً» .

آه « يا أبو الهمايم » أنت من يقدم القهوة والشاي لأمثال هؤلاء ...!! لا عيب في ذلك في العمل وربما كان هذا أفضل من سواه في هذه المدينة الخانقة مادام لا يوجد ثمة حقل أو بيدر .

لم يعد في الأمر ما يقال فمصلح الحاصود أصبح واحداً من مستخدمي الجامعة ولولا الكوفية والعقال لاعتقد البعض أنه شخص آخر .

وقد ذكر الكثيرون أن مصلح الحاصود ، صار يحمل بيمينه مظلة تقيه المطر أيام الشتاء وهذا لم يكن متوقعاً على الاطلاق .. ولكن مادام الأمر قد حدث فقد أصبح مجالا للتندر من قبل الكثيرين ، حتى مصلح الحاصود نفسه حين سئل عن الأمر أجاب :

منذ أيام جادت السماء بكل مالديها من مياه ، حتى لو نظرت الى حرم الجامعة ، خيّل اليك أن الجميع يمسكون بمظلة واحـدة .. اللهم لولا هذه الحركات المختلفة من شخص لآخر .. وقد خطر لي أن أكون واحداً من هؤلاء مادمت أملك مظلة مثلهم .

أمسكت المظلة وخرجت أتوكأ عليها ، وبقيت واقفاً تحت المطر دون أن يخطر لي وضعهـا فوق رأسي رغم نظرات الاستهجان ، وعبارات المداعبة من قبل الطـلاب والطالبات .. قلت في نفسي .. آه لو يعرف هؤلاء رائحة الجسد المبتل بماء المطر .. لقد نسيت المظلـة ونسيت كل شيء والأمر الذي سرني أكثر ، أن رائحـة جسدي ما زالت كما هي . رغم مرور هذه السنوات ... ومتى كان مصلح الحاصود يخشى المطر؟

* * *

اليوم خرج مصلح الحاصود مبكراً كعادتـه حيث اعتاد أن يصل الجامعة ، قبل الساعة الثامنة صباحاً ليتسنى له القيام بواجباته قبل قدوم الموظفين إلا أن الظهيـرة حملت لأسرته هماً وحيّرة ، فقد انقضى الوقت المحـدد لعودته دون أن يراه أحد ، ومضت ساعات النهار ببطء

شديد وهي تحمل في طياتها كل المآسي التي اعتادالناس حدوثها في المدن الكبرى •

تقول زوجته خضرة : ربما كان ضحيـــة لسائق متهور أو ربما ابتلعته ضوضاء المدينة ، أو كان عرضـــة لأبناء الحرام أو •• وقـــد اقتربت كل هذه الاحتمالات من ساحة الحقيقة حين أفاد الموظفون في الجامعة أنه ، لم يلتحـــق بعمله هذا اليوم ، وحين أكدت معظم مشافي المدينة انهـــا لم تستقبل أحداً بهـــذا الاسم • ورغم ذلك استمر افراد أسرته بالبحث طوال الليل حتى أصبح مصلح الحاصود عنواناً للعديد من الضبوط في مخافر الشرطة المنتشرة في أركان المدينة المختلفة •

وفي الصباح الباكر وبينما كان باب المنزل موصداً بهواجس الحزن ، نهضت زوجتـــه خضرة على وقع اقدام تقترب من الباب ، رأته أمامهـــا شامخاً مبتسماً رغم علامات التعب الواضحة التي لفت قدماها بالأرض ، ربت على كتفها انتقلت إليهـــا عدوى الابتسامة ، ثم استدارت يحف بهـــا جميع أفراد الأسرة •

على طرف الفراش المتواضع ، ألقى بجسده ، بعد أن رمى حذاءه على عتبة البيت •

كوفيته البيضاء ، يعلوها غبار من نوع خاص ، وأهدابه لم تعد سوداء كما كانت فقد لفهما الغبار أيضاً .

شعرت زوجته خضرة أنها أمام مشهد مألوف ، حاولت أن تستجمع ذاكرتها .. رائحة القش تلتهم أنفها لكن من أين القش مادام لم يعد في الأمر حقل أو بيدر ؟

ليس في الأمر ما يبعث على القلق ، كأس من الشاي وتعرفين كل شيء .. موجات الضحك المتواصل بددت أوصال الحزن ، وهزت أطراف الصمت ، ووضعت حداً لكل الاحتمالات .

كل ما في الأمر :

أني خرجت باكراً كما تعلمون ، فاجتاحني ندى الصيف ، أحسست أن « مصلح الحاصود » ما زال كما كان .. ندى حزيران بعث في أوصالي رغبة جامحة في الحصاد .

دبت في أوصالي أسراب من النمل ، حتى أصبحت أصابعي تتحرك بشكل عفوي وكأنما تطوّق منجلا هاجت بي الذكرى ، أحسست أن شيئاً ما ينقصني في هذه اللحظة بالذات تماماً كالمدخن الذي غادرته سيجارته منذ زمن ،

فرغم دخان السيارات وصخب المدينة الـذي تعرفونكانت رائحة القش وحدهـا تملأ صدري حتى صارت المدينة بكاملها حقلا من القمح ، لا أدري لذلك سبباً ـ ربما معرفتي أن موسـم الحصاد ـ قد حل ، فمنذ أن غادرت القرية لم تبرح ذاكرتي المواعيد كلها •

المهم أن ندى حزيران قد حمل إلي القريـة بكاملها وقد كرهت هذا الشهر بالقدر الـذي أحببته ، وكلمـا ذكرني بهزيمتي ، ذكرني في الوقت نفسه بالحقل والبيدر• وكلما مر حزيران التحم بهما أكثر •• وزوجك مصلح أبو الهمايم لا يهزم كما تعلمين يا خضرة •

ماذا يجب أن أفعل والمنجل يطوق ذاكرتي؟!

ورغبة جامحة في الحصاد تهز أوصالي ، وندىحزيران يلفح جبهتي ، تماماً كما كان سابقاً •

الجامعة لم تعـد في ذاكرتي ، كل ماهو أمامي سوق القش تنتظر رقصة المنجل ولاسيما حين يلوح به مصلـح أبو الهمايم •

المدينة لا تحوي حقلا ، وأطراف المدينة لا أعرف شيئاً عنها • أرشدني بعضهم الى القرى في غوطة دمشق ،

هذا اليوم تعرفت الى شوارع أخرى في المدينة بحثاً عن السيارات التي تقل الذاهبين الى الغوطة ، الجامعــة بمن فيها لم تخطر بذاكرتي ، وقد زاد ابتعادها ، كلما عبرت السيارة حقلا أو بستانا في الطريق الى عمق الغوطة ،وازداد صدري اتساعاً حين لاح لي حقل من القمح يمنح خيوط الشمس لونهـا الذهبي ، هناك وهناك بالضبط وصلت ما انقطع من الذكرى .

طلبت من صاحب الحقل أن يمنحني منجلا ، فوقف مشدوهاً ، من أنا لا يعرف ؟ ولماذا المنجل لا يعرف؟

قال : لم أطلب مساعدة من أحد ، ولست مستعداً لدفع قرش واحد من أجل أن يحصد حقلي.

ضحكت كثيراً حتى كـدت الفظ أحشائي ....
ظن بي الجنون ، وحاول عبثاً اقناعي ، انتابه الوجل،عكست قسماته خوفاً من مجهول ، ومضى زمن قبل أن يتسرب الاطمئنان الى قلبه وحين جلب لي المنجل تحت إصراري المتواصل كان يغامر بشيء لا يعرف نهايته .

وازداد ذهوله حين بدأ المنجل يرقص بين يدي ، ويحتضن سوق القش على أنغام الحداء الذي انبعث من أعماق الذاكرة ، ثم ما لبثت نظرتــه أن تآلفت مع حركات

ساعدي المتواصلة المتقنة وتأكدت لديه هويتي ، بعد أن جالت عيناه فوق أغمار القش التي تتابعت في أرض الحقل .

واستمر حدائي متواصلا حتى اغتسل جسدي بالعرق الذي تصبب ساعات متواصلة الى أن شعرت أن شيئاً ما في داخلي قد بني من جديد .. لكن سأعترف لكم .. إن شعوراً بالغربة قد تسلل الى راحتي حين أمسكت المنجل للحظة الأولى ، إلا أن ماردا قديماً قد نهض فاختصر السنين .

عدت الى صاحب الحقل لأجلو له النهاية التي ترقبها بدهشة واهتمام .

لكن الأمر لم يكن صعباً على الاطلاق ، لقد جمعتنا رائحة القش ، واستطاع أن يفهم كل مافي داخلي ، بعد ذلك تشابكت أيادينا وكان الوداع دموعاً .. هذا كل ما حدث .

وغداً سأذهب الى الجامعة .. « لعن الله ذاك اليوم الذي كان سبباً من قال : إن أبا الهمايم يقدم الشاي والقهوة لأمثال هؤلاء »؟

صدحت حناجر الجميع بالضحك ، ثم ساد الصمت وتجمدت الكثير من حبات الدمع على وجناتهم .

فلم قصير جداً

فلم قصير جداً

رغم تحطم عدسة « الكمرة » إلا أن الفلم المخزون في بطنها يحكي الكثير مما شاهدناه في ذلك اليوم.

— ١ —

من بعيد بدا المخيم عشاً دافئاً تحتضنه التلال المجاورة وتمنحه خضرة نادرة رغم سحب الدخان السوداء التي غطت عين « الكمرة » في الكثير من الأحيان ، وكلما اقتربنا أكثر ارتسمت الشوارع عروقاً تغذي جسد المخيم في الأنحاء كلها ، وشيئاً فشيئاً راحت تتسع لتبدو أمامنا بكل ما فيها من عناصر الحياة الخاصة التي يعيشها المخيم منذ زمن ، فعلى المدخل الرئيسي انتشر الجنود المدججون

بالسلاح ، وانتشرت المصفحات المموهة ، وقد اعتلاهـا حراسها ، وقد فرّت عيونهم من محاجرها لمراقبة الحجارة التي ملأت الفضـاء ، بينما تراكض بعضهم للامسـاك بطفل لم يتجاوز العـاشرة يحمل بيمينه علماً لفلسطين ، ويضربون بهراواتهم حاملي آلات التصوير .

– ٢ –

جرافة بحجم كبير جداً تجتاح حقلا من الزيتون ، بينما أمسك عدد من الجود برجل مسن تجـاوز الستين حيث علا صراخه بالرفض والاستنكار ، وفي لحظة استطاع الافلات من أيديهم ، واندفع راكضاً أمام الجرافة وأسنـد ظهره الى جذع آخر شجرة في الحقل ، بينما استمرت الجرافة في تقدمها .. حاول مقاومتها بيديه ، ثم استدار وطوق الجذع بذراعيه وهو ينتحب حتى يخيّل اليك أن شجرة الزيتون قد ارتوت بدموعه ، ثم توحد معهـا الى الأبد حين ارتفع معها على أسنان الجرافة الحادة ، التي ابتلعت صوته المدوي بهديرها وصلصلة جنازيرها ، ومن تحت التراب ظلت بعض الأغصان الخضراء تلوح لنا بينما حملت إحداها أطراف كوفيته .

- ٣ -

باب خشبي عتيق يفضي الى ملجأ تحت الأرض تكوّم فوقه منزل مهدوم انتشرت حجارته لتملأ أرجاء المكان ،وفي الداخل بدا عدد من الأطفال يتحلقون حول المعلم وهم يمسكون بأقلامهم •• فجأة •• الجنود يدخلون المكان، ارتفعت هراوة أمام عين « الكمـــرة » ثم غلب اللون الأســــود •



الملاحق

الملاحق

أنت ملاحق ، الكون على اتساعه يبدو أمامك الآن ثقباً صغيراً في زاوية جدار ومع ذلك فأنت مضطر لولوجه.

جسدك الهزيل هدف سمين لعيون العسس المنتشرين كحشرة البق ، التي تأخذ أبعادهـا في الظلام لتمتص دماء الأبرياء .. أنت حريص ألا تكون صيداً رخيصاً لـهم الحذر هو الغلاف الذي يلف أحاسيسك المتحفزة دائماً.

في كل لحظة تتسع حدقتا عينيك ويستنفر الشعر في رأسك ، كل خطوة من خطواتك لها حساب ، ومع ذلك فأنت راض تماماً عما فعلت ، فحين تسللت الى بيته كـان ملايين الفقراء يحفون بك من كل جـانب ، وحين خرجت تحمل رأسه كانت ملايين السواعد الفتية تحمله معـك

وتمنيت في ذلك اليوم أن تطوف في عرض البلاد وطولها وأنت ترقص فرحاً ، وكانت سعادتك كبيرة لو علم كل القابعين في أقبية السجون بهذا الحدث العظيم .

إذن أنت سعيد بما فعلت رغم هذا الشقاء الذي تمر به الآن ، الأصدقاء يحاولون مساعدتك ويتسترون عليك أينما حللت ، ومع ذلك فنار الشوق الى زوجك وأطفالك بدأت تلهب ذاكرتك لقد مر على مطاردتك عام بكامله ، وأنت لا تدري ماذا حل بهم ، ها أنت اليوم تحوم حول المنزل الذي يؤوي أطفالك متخذاً من الظلام سلاحاً لحمايتك ، يبدو أن المراقبة قد ابتلعها الظلام فلا يبدو أحد الآن كما أرى .

من النافذة الهرمة تنبعث خيوط السراج تحمل أنفاس الصغار فتتحد مع نبضات قلبي المتعب ، علي أن أتقدم قليلا عسى أن أنجح في دخول المنزل . حالة من التردد تنتابني الآن .

حركة العسس لا يمكن أن تهدأ ولن أكون صيداً رخيصاً ، أتراجع على الفور لألوذ بزاوية الزقاق المقابل والتصق بأحد الجدران ، حتى غدوت حجراً من حجارته التي تحمل تاريخ القرية ، الشعاع المنبعث من عيني

يتحد مرة أخرى مع شعاع السراج الذي يبدو قمراً أصابه الكسوف ، تشدني عاطفة الأبوة ، لا بد أن أرى أطفالي هذه الليلة وليكن ما يكون ، أتقدم مسرعاً ، تلتهم أقدامي الأرض ، أتذكر ذلك اليوم الذي تسللت فيه الى بيته مع خيوط الريح فابتسم ، يبدو الكون أمامي حديقة واسعة ويتحول الزقاق الى حزمة من ضوء ، أتقدم ، أدقق النظر في كل اتجاه ، تلتصق عيناي بالنافذة ، أتوقف برهة ، تبتلع أذناي أنفاس الصغار ودبيب الحشرات السارحة.

تقرر الدخول ، تنقر النافذة بحذر ، يخيل إليك أنك أحدثت دوياً هائلا ، تتراجع قليلا ثم تقنع نفسك أن أحداً لم يسمع ذلك فتعاود النقر على النافذة مرة أخرى ، تنبعث إليك حركات بطيئة من الداخل تعاود النقر ، تتسارع الحركة من الداخل بحذر واضح ، لكنه على أي حال ليس كالحذر الذي أنت فيه ..من؟.. أنا ياقمر ، تقول بصوت مرتفع كأنما افلتت من لجام الخوف : أنت ؟. اهدئي قليلا تدخل ، تعانقها وتتحد الدموع نهراً من الحب ، وتلف بعينيك وجوه الصغار الحالمين ، فتطوف عليهم طيراً يعود الى عشه ليحمل لهم دفء الشمس .

من أجلهم فعلت كل ذلك ، ومن أجل حياتهم أنت

ملاحق الآن ، فلا بأس إذاً أن تتحمل الشقاء ، لا تدري هل قلت هذه الكلمات في سرك ،أم أنهـا سمعتك لكـن عيناها تؤكدان انها فهمت كل ذلك ، تهمس لها بأحاديث وأسماء لا تعرف كيف تذكرتها الآن ، تودع الجميع وتخرج مسرعاً وشعور بالانتصار يلف جوانحك ، هاقد نجحت في العودة الى عشك واطفأت ظمأ الشوق إليهم ولو للحظات رغم العيون المتربصة بك في كل لحظة ،أنت قـادر على التحدي في كل وقت ، وها أنت الآن تدق الأرض بقدميك كل البيوت الغافية في هذه القرية هي بيتك ، فامض الى حيث شئت .

يخطر لك الآن أن تزور الجميع ، لكن الموقف لا يسمح بذلك ، تقرر أن تقوم بعملية جديدة لتقطف رأساً آخر ، لكنك لن تكون وحيداً هذه المرة .

منذ أن قتل الحاكم العسكري في العـام الماضي ، لم يشاهده أحد ، وقوات الاحتلال لم تترك مكاناً إلا ونبشته بحثاً عن القاتل ، أحرقوا الأشجار والغابات المجـاورة ، اعتقلوا الأصدقاء نشروا العيون في كل مكان ، أصبحـت الحجارة في نظرهم رجالا وكثيراً ما أطلقوا النار على أشباح توهموها ، ولكن دون جدوى .

صار ظله يلاحق الجميع ، صار هاجساً لكل الناس بعضهم يقول :

لقد دخل القرية مراراً ، وهمست بعض النسوة بأن زوجته حملت طفلها الأخير بعد فراره .

انه موجود في كل مكان ، وما مر ذكره لحظة إلا أحيط بابتسامات واثقة ، صار مارداً اسطورياً رغم معرفة الجميع أنه فلاح بسيط وأقل الناس ملكاً في قريته .

هذه الليلة الريح تسحب أحبال المطر من رحم الغيم الأسود ، لتشكل سداً بارداً يحيط بالقرية من كل جانب الأضواء تبدو راقصة عبر النوافذ العتيقة تغالب الريح المتسلل عبر الشقوق وأزقة القرية ، تبدو جدولا راكضاً تطفو على سطحه كثير من موجودات البيوت التي اعتاد الفلاحون أن يضعوها في ديارهم . حاولت النظر من النافذة ، الكون كله كتلة سوداء متماسكة ، وليس هناك ما يشعر بالحياة سوى حبات المطر المحمولة على أحبال الريح التي تعوي وكأنما تنذر بشيء قادم ، وبين الفينة والأخرى ، تسمع أصوات المحركات لسيارات متعبة تحاول مقاومة الماء ، ومنها تنبعث قرقعات خشنة لأسلحة مختلفة . أغلقت النافذة ، وعدت الى فراشي وتقاطرت أفكاري كحبات المطر التي تطرق سقف المنزل .

أفقت من شرودي على صرير الباب المجاور ،أدركت أن حجرة والدي هي التي فتحت ، نهضت مسرعاً ،حاولت أجفاني مقاومة الظلام ، لاح لي شبح يخترق الليل ،لست متأكداً من ذلك إلا أن نبرات مختلفة لأصوات عديـدة بدأت تنبعث من حجرة والدي ، تخبو أحياناً ، وترتفع أخرى لكنها مع ذلك ليست مسموعة إلا لمن يصيخ السمع انتابني شعور مبهم ، شيء ما سيحدث هذه الليلة .

الأصوات بدأت تختفي ، ووقع أقدام بدأ يطـرق مسامعي كلما تركت الريح فرصة لذلك ، ومضت قوافل الليل بالرحيل ، وهبت أنفاس النور الخارجة من قلـب الشمس المغلفة بغيوم الشتاء لتلتهم أذيال الليل .

ولتضع لأفكاري حداً كنت أحلم به دائماً ..كان ذلك حين استيقظت القرية على أصوات اطلاق النار في كل مكان ، حيث بدأت قوات الاحتلال بأعمـال المداهمة والتفتيش لملاحقة رجال المقاومة الـذين قتلوا الحاكم العسكري الجديد في منزله وقاموا بتوزيع المنشورات المعادية للاحتلال في الأنحاء كلها .

على الفور لفت أهدابي وجه أبي ، تلاقت نظراتنا ، قال لي شيئاً دون أن يتكلم ... ابتسمنا معاً ، تعلقـت ابتسامتنا على أزيز الرصاص .

نجل الخواجة

نجل الخواجة

ظهراً ، بدت سيارات الشرطة الصهيونية تنهب الشارع الرئيسي في مدينة يافا بجنون ألفه الجميع ، وهي تطلق العنان لأبواق الانذار التي ابتلعت آذان المارة وأفئدتهم .

بينما بدأت بعض العناصر المسلحة تسد المداخل المؤدية للمدينة .

مثل هذه المشاهد تكررت كثيراً ، وقد ارتبطت بأذهان الناس بالعمليات الفدائية المفاجئة .

لكن اليوم ، الأمر مختلف .. حيث لم يسمع أحد صوت انفجار ، أو لعلعلة رشاش ولا حتى طلقة مسدس، فما الذي حدث اذا ؟

مساء ، عاد عوض الأعرج الى المخيم وعلى غير عادته ، توجه الى دكان الحاج « أبو فارس اليافاوي » قبل أن يبدل ثيابه التي بدت مشبعة بزيوت السيارات التي اعتاد معالجتها في الكراج الرئيسي لمدينة يافا .

اتخذ مكاناً له زاوية الدكان ، حيث ألقى بجسده المتعب فوق كيس قديم حمل في قعره بقايا الملح المتصلب وأسند ظهره الى الجدار وهو يضرب كفاً بكف ..

« لا حول ولا قوة إلا بالله .. الى متى ياناس ؟الى متى ياجماعة ؟ .. والله لم يعد أمامنا ما نفعل إلا أن نموت فهذا أكرم لنا جميعاً» .

لم يكن الحاج« أبو فارس » أو غيره من الحضور بانتظار هذا الكلام حتى يوحي لهم بشيء ، فقد أدركوا جميعاً منذ أن دخل عوض الأعرج .

ان شيئاً هاماً قد وقع .

قال أبو فارس :

ما الذي حدث يا عوض ؟

قال عوض بعد أن عب دخان سيجارته :

ما حدث اليوم في يافا يجعل المرء يخرج من دينه ..
لعل بعضكم يعرف الولد اليهودي ابراهام نجل الخواجة اسحـق ...

الذي قدم مؤخراً من نيويورك ..

هذا الولد منذ قدومه كان سبباً في العديد مـن الحوادث :

فهو الذي أحرق صالة السينما في الصيف الماضي بعد أن ألقى بعقب سيجارته فوق الممر الخشبي ..وهو بالذات الذي شوهـد متلبساً في حادث السطو الذي وقع على مجوهرات الخواجة بنيامين منذ أشهر .

قال أحد الحضور :

لقد عرفته جيداً ، فهذا الولد ذاتـه هو الـذي اعتدى على الشيخ « أبوبكر العالم » بعد خروجـه من صلاة الجمعة منذ أسابيع ، حيث ألقى به أرضاً ..الأمر الذي اضطر الشيخ أن يستخدم عكازه للدفاع عن نفسه وحين حضرت الشرطة للتحقيق أرغم الشيخ على دفع غرامة ماليـة بحجـة الحاقه الأذى بالولد ابراهام وقـد برر المحقق هذا الأمر بقوله :

لقد ارتسمت عكازة الشيخ ظلا أزرق على عجيزة الولــد •

نعم هو بالذات •• وأذكر جيداً انه كان شريكاًلعدد من قطاع الطرق في خطف الفتاة الفرنسيــة « جيانا » في منطقة الساحل وقد اعتقلوا يومها « أبو عمرالحداد»!!

بعد هذا لا أدري ماذا أقول :

يكفي لأن يمر ابراهام هذا في الشارع حتى يقف جميع أصحاب المحال أمام محالهم تحسباً لما سيحدث •

بدا أبوفارس متوتراً ••• كل هذا نعرفه جيداً ، والملايين التي يملكها أبوه تغفر له كل ذلك ، هذهعقيدتهم •

ولكن ما الذي حدث تحديداً ؟

الذي حدث :

أن النجّار « أبو أحمد العربي» الذي يعمل مقابــل الكراج ، عاد الى ورشته ظهراً وهو يحمل محفظــة وضع بها نقوده التي جمعها من بعض الزبائن في المدينة وكعادته جلس أمام خزنتــه ليجري حسابه المعتاد في هذه الأثنــاء وقف ابراهام على الرصيف مع مجموعة من أمثاله ،وراح يراقب النجّار طوال ساعة كاملة ثم اندفع مع مجموعتــه

داخل الورشة ، وهوى على رأسه ببلطة أخفاها تحت ملابسه ،بينما قام الآخرون بسلب محتويات الخزنة •
وحين هرع المارة كان أبو أحمد يتخبط بدمه فوق العارضات الخشبية المنتشرة في أرض الورشة ،وبعدلحظات انتشرت قوات الأمن في الأمكنة كلها ، وبدأت بمداهمة البيوت في الحي العربي ، وفي كل الأمكنة التي يتواجد فيها العرب ، حيث قاموا باعتقال :

يوسف الصفصافي ، وعطا الله العيد ، والحاج منصور السعد ، والأستاذ عبد الله الهادي ، وغيرهم كثير •

وأنا شخصياً قاموا بتعذيبي ، وتفتيش الكراج الذي أعمل فيه ، واستمرت هذه العملية حتى المساء •

« طيب ياجماعة : إذا كان كل الناس شاهدوا ما حدث ، والجاني معروف للجميع ، فما علاقتنا نحن؟!»

في المرات السابقة قلنا إن بعض الأخطاء قد وقعت•• ولكن الآن ماذا نقول !؟؟

أليس في هذا ما يجعل الانسان يفقد صوابه ؟

قال أبو فارس :

لا ياعوض ، بل في هذا ما يجعل الانسان يعود الى صوابه وما حدث أمر معروف تماماً ألفناه منذ زمن •

والآن يتوقعون امتداد الانتفاضة الى المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ • ولا يجعلون فرصةتفوتهم إلا واستثمروها في اعتقال المزيد من الشباب العرب •• ولا تستغرب إذا شاهدت غداً هذا الولد ابراهام يقوم بعملية أخرى ••

ففي كل عملية من هذا النوع فرصة جديدة !!

وقبل أن يكمل كانت مكبرات الصوت تنذر سكان المخيم بالبقاء داخل منازلهم ، بينما تتابعت انفجاراتمدوية في أنحاء مختلفة ، وشرع الجميع بالنهوض •



صدر للكاتب

شهادات على جدران الوطن ـ قصص ـ ١٩٨٧



ملاحظـــة

كتبت هذه القصص بين عام ١٩٨٥ و ١٩٩٠ وقدنشر بعضها في الدوريات كالآتي :

ــ نجل الخواجة ــ صحيفة اللواء ــ بيروت (ع) ٢ شباط ١٩٩٠ .

ــ ضريح عويص ــ الموقف الأدبي ــ (ع) ٢٤١ ــ ١٩٨٩ .

ــ دينار .. وتموت بثانية ــ الأسبوع الأدبي (ع) ١٧٧ ــ ١٩٨٩ .

ــ رحلة أيوب العربي ــ الأسبوع الأدبي (ع) ١٩٨ ــ ١٩٩٠ .

ــ الملاحق ــ الأسبوع الأدبي (ع) ٩٢ ــ ١٩٨٧

ـ جنون الجنرال ـ الأسبوع الأدبي (ع) ١٤١ ـ ١٩٨٩ ٠

ـ عودة أم خالد اللواء (بيروت) ٢٥ أيار ١٩٩٠

ـ ندى الحصاد الأسبوع الأدبي (دمشق) ع٢١٨ ١٩٩٠

ـ أحلام يعكوف ـ الكاتب الفلسطيني(دمشق)ع١٨ ـ ١٩٩٠ ٠

ـ الجوع ـ الأسبوع الأدبي (دمشق) ع ٢٣٤ ـ ـ تشرين الأول ١٩٩٠ ٠

* * *

المحتوى



المزعل ، علي حسان ، ندى الحصـــاد ، قصص ،
منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٠ ، الطبعة الأولى
١٤٤ ص قطع ١٤×٢٠ ــ دمشق ، مطبعـــة اتحاد الكتاب
العرب .

١٥٠٠ – ١٢ – ١٩٩٠

* * *

مجموعات قصصية
صادرة عن اتحاد الكتاب العرب

حماة الديار — ناشد سعيد ـ

التوغل في عمق الغابة — ضياء قصبجي ـ

رجع الصدى — مظفر سلطان ـ

سباق في مسبح الدم — مراد السباعي ـ

سلاح الأعزل — اديب نحوي ـ

الرقيق — وهيب سراي الدين ـ

حين تتآكل الأصابع — فاروق مرعشي ـ

أحدثكم عن نفسي — حسني سيد لبيب ـ

ذلك النداء الطويل ٠٠الطويل — عبد الله أبو هيف ـ

قرنفل أحمر لأجلها — حسن حميد ـ

مجموعات قصصية

صادرة عن اتحاد الكتاب العرب

عرق — جبرا ابراهيم جبرا

تحت النافذة — مراد السباعي

التقرير — وليد اخلاصي

الأزمنة الحديثة — محمد كامل الخطيب

التحولات — سالمة صالح

السهم الأخضر — ليان ديراني

عصي الدمع — إلفة الادلبي

حكاية الظمأ القديم — جورج سالم

تاريخ جرح — فؤاد الشايب

أقوى من السنين — وداد سكاكيني


اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق